الفصل الرابع

عين على مصر

الأولى

«الحلمية»

من شباك الطفولة.. إلى فضاء العالم!

أربعة وثلاثين عاما بعيدا عن حى الحلمية الجديدة.. لم تنجح فى محو تلك التفاصيل الصغيرة.. الدقيقة.. القديمة لهذه المنطقة من الذاكرة.. غادرتها عام 1979.. وعشت فيها 14 عاما.. وزرتها مرات عديدة بعد الرحيل.. لكنها تبقى ملتصقة بجدران الذاكرة.. الحضانة البسيطة المتواضعة الملحقة بمركز شباب الحبانية.. صحبة السنوات الأولى.. رغم انقطاع كل الخيوط.. أول فستان للعيد علق بالذاكرة.. بلونه الأحمر.. وكسرات تنورته المتناسقة.. عم «عطية» اللبان.. و «أم منعم» البقالة.. و «عبد الحميد» بائع إطارات الكاوتشوك.. و «بهجت» البنان.. أول خبرات الاستماع للغناء النوبى.. فى أفراح مركز شباب الحبانية.. الوقوف المتكرر بباب سينما «الحلمية» فى رحلة العودة من المدرسة.. والتطلع لهؤلاء الكبار الذين يدخلون هذا المكان السحرى.. عبر بوابة كنا نراها مهيبة عملاقة – ولم تكن كذلك فى الحقيقة! –.. مدرسة أحمد عرابى

الابتدائية.. ومحاولة اختطاف لم تكتمل.. زفة مولد الرفاعى.. والنزهة المحببة بين جامعى السلطان حسن والرفاعى.. والمرتبطة أحيانا بشراء بطيخة كبيرة من بائع متمركز عند باب الجامع.. زينة رمضان وفانوس رمضان.. وصوت الشيخ سيد النقشبندى.. رائحة البشر ورائحة البنايات القديمة..

1

العالم كله كان مختزلا فى لوحة بانورامية.. عبر النافذة الكبيرة الطويلة.. التى يقترب حدها الأعلى من سقف الحجرة الكبيرة.. للمنزل القديم ذو الحجرات الثلاثة.. المطل فى جهته الخلفية على مدرسة أحمد عرابى الابتدائية.. ومركز شباب الحبانية.. وسينما الحلمية والطوابق السكنية الثلاثة التى كانت تعلوها.. وعن بعد يتراءى جانب من بناية مستشفى أحمد ماهر التعليمى.. هذا المشهد الذى اعتادته عيناى.. ثم عشقته.. فوجد لنفسه مكانا غائرا فى الذاكرة.. يمس بالحنين قلبى.. فى بداية السبعينيات من القرن الماضى.. كان مفهوم الحضانة عند عموم الطبقة الوسطى للمصريين.. يختلف كثيرا عما هو موجود الآن.. كانت الفكرة شديدة البساطة.. وهى ما يحتاجه الأطفال فى سن ما قبل المدرسة.. فضاء متسع.. مفتوح على هواء نظيف.. وألعاب بسيطة.. وقليل من الحروف والأرقام.. ثم الكلمات والعمليات الحسابية المبسطة.. هذا كل ما فى الأمر.. وهو التعليم الحديث الآن فى المدارس الأوروبية.. والأجنبية فى مصر.. كارنيه صغير يحمل صورة عضو الحضانة «الطفل».. وهو شىء كان يبهر ويسعد هؤلاء الذين لم يكن يزيد طول كل منهم على 60 سنتيمترا.. يحرص كل منا على حمله فى حقيبته الصغيرة الملونة.. ليس قريبا من السندوتشات..

وتلك أولى الوصايا التى يتم سكبها فى الأذن.. فى تجربة الخروج الأولى من المنزل!!

2

عادة يوم الخميس.. وفى أحيان قليلة يوم الجمعة.. كنت أجلس على نافذة عريضة القاعدة.. بما يسمح بجلوس مخلوق فى الرابعة أو الخامسة من عمره بارتياح.. مصطحبا طبقا صغيرا من الأرز باللبن.. أو المهلبية.. أو أى ابتكار مصرى يلهى الإنسان عن الاستمتاع بمشاهدة ما يجلس لمشاهدته.. عادة مصرية أصيلة.. لا تجدها فى طقوس أى شعب آخر.. أمام التليفزيون.. فى السينما.. فى المسرح.. فى البلكونة أو النافذة.. يجب أن يتحرك الفم عندما تشاهد العين..

الخميس عصرا.. صفوف من البشر ذوى اللون الأسمر.. الرجال بجلابيبهم ناصعة البياض.. وغطاء على الرأس ذا طريقة خاصة فى اللف والتشبيك.. والنساء بالثوب المتعدد الألوان.. كنت لا أعى فى فترة مبكرة فكرة أن ترتدى النساء ملابس للخروج.. ثم تقمن بتغطيتها بثوب طويل يتم لفه حول الجسم.. ويغطى جزء منه بعض شعر الرأس.. كما كان غريبا بالنسبة لى أن يرتدى الرجال الجلباب الأبيض مصحوبا بعمامة عالية بيضاء فى الأفراح.. فالجلباب الأبيض كان زيا منزليا فى معظم البيوتات المصرية فى ذلك الوقت.. قبل أن يتوارى محتلا مكانه زيا رجاليا من قطعتين يطلقون عليه مجازا اسم «ترينج».. وهو بعيد كل البعد عن شكل ووظيفة الـ «ترينج» المخصص للرياضة.. هو تطور ما للبيجاما الرجالى مع بعض التعديلات

على الشكل الكلاسيكى لها.. فنوع القماش لم يعد «كستورا» أوقطنا صيفيا خفيفا.. وشكلها وتصميمها لم يعد كما كانت بصف من الأزرار الأمامية.. على كل حال.. كان يبهرنى لون البياض الناصع للجلابيب الزاهية.. تتزايد الأعداد بغياب الشمس وحلول المساء.. وإضاءة الأنوار الكاشفة لمركز شباب الحبانية.. استعدادا لفرح نوبى جميل.. وأنا قابعة فى مكانى لا أمل.. انتظارا لاكتمال العدد المبتغى.. وبدء الموسيقى المميزة..

نوع من الموسيقى المرتبط بخطوات الأقدام يخاطب الروح.. الرقص المميز على أنغام الموسيقى النوبية.. رقص يشارك فيه الجميع.. رجال ونساء وأطفال.. فى شكل صفوف مواجهة لبعضها البعض.. نوع من الغناء يمس قلبك دون أن تفهم معانى كلماته.. وعندما تبدأ الموسيقى.. يكون الطبق الذى بدأت العمل به – أيا كان نوعه – قد انتهى.. فتبدأ فقرتى الخاصة للرقص معهم ومثلهم من خلف نافذتى المقدسة على الإيقاع النوبى.. ومن وقتها عشقت هذا الغناء وهذا الرقص الإيقاعى التعبيرى الهادىء.. وصرت أتابع حفلاته فى أماكن عدة.. أو عبر شرائط الكاسيت.. لم يكن هناك صوت لا للتمييز ضد النوبيين باعتبارهم أقلية.. ولا للجماعات الساعية إلى واشنطن على جسد قوم حكموا مصر فى الأسرات الفرعونية الأخيرة!!

بعدها بأكثر من 20 عاما.. قال لى الملحن المتميز منير الوسيمى: إن الموسيقى النوبية بسلمها الخماسى.. هى بنت الموسيقى الفرعونية القديمة.. وهناك دلائل على ذلك تم استخلاصها من نقوش على المعابد الفرعونية.. فهى موسيقى السلم الخماسى.. قبل أن يعرف العالم هذه الفنون.. وقبل أن يضيف اللاحقون درجتين ليصبح السلم المعتمد هو السلم السباعى..

3

فى سبعينيات القرن الماضى.. لم أكن أعى معنى أن يموت رئيس الجمهورية.. ولا خروج الناس لشوارع منطقة الحلمية.. باكين.. واجمين.. صامتين.. رغم علمهم بأنهم بعيدون مئات الأميال عن خط سير الجنازة.. رأيت المشهد.. وسمعت حوارات حوله.. رأيت دموعا فى عينى أبى الحمراء من طول البكاء.. ورأيت دموع رجال فى شارعنا.. كنا أطفالا نخشاهم لهيئتهم القاسية.. وكنت أعتقد أن الرجال لا يبكون.. رأيت صورا عديدة للرئيس جمال عبد الناصر.. فى بيتنا.. وفى محلات الجزارة.. والبقالة.. والعطارة.. هى نفسها الصور التى وضعها الناس قبلها بسنوات.. لكنها اكتست بتلك الشارة السوداء المائلة.. على طرف يسار اللوحة.. لم أفهم معنى تلك الشارة!

هل كانت الصورة فى فرنسا ذات الصورة؟ فى نفس العام مات رئيسها شارل ديجول.. هل علت صوره شارة سوداء مائلة؟ أو أن رجالها صاروا ذوى عيونا حمراء من كثرة البكاء؟ أو أن صحفها خرجت بإنشيتات صفحاتها الأولى سوداء؟ حدث هذا فى «الأهرام» و «الأخبار» و «الجمهورية».. فلم تكن هناك لا «المصرى اليوم» ولا «الدستور» ولا «الفجر».. ولا كل هذا الكرنفال من المطبوعات الورقية.. ولا كانت أحزاب.. ولا منظمات مجتمع مدنى.. ولا روابط ولا جمعيات.. فقط كانت الحياة هادئة.. بسيطة.. منظمة! بعدها عرفت أن العالم صار عدد مفاعلاته النووية 90 مفاعلا فى هذا العام.. 1970 !!

4

فى الشارع الضيق المؤدى لشارع القلعة كان البيت الذى يحمل رقم 4.. ومن شارع القلعة فى شهر جمادى الثانى من كل عام – لا أذكر اليوم بالضبط – كانت تأتينا الأصوات فى المنزل.. فنهرول جميعا.. كل الأطفال.. إلى الشارع الكبير.. لنشهد «الزفة» متحولين إلى عيون فقط.. ترصد وتتابع وتنبهر.. وتعود لتسأل فى المنزل عن الكثير من الأشياء والتفاصيل.. التى غالبا لا تجد لها إجابة.. زفة المولد.. مولد «الرفاعى».. وقتها لم نكن نعلم من هو الرفاعى.. وكان يتبادر إلى الذهن أنه موجود ضمن الموكب الضخم.. الذى يعبر الشارع الطويل الممتد من ميدان باب الخلق.. حيث محكمة جنوب القاهرة.. إلى حيث المسجد المسمى باسمه والقريب من القلعة.. كنا نعتقد أنه شخص مهم يحتفى كل هؤلاء البشر بوجوده بينهم.. وكان عصيا على الفهم – رغم كل التفاسير التى يوردها الآباء والأمهات – معنى «مولد».. أما التفاصيل.. فمازالت فى الذاكرة.. المشهد بكامله فى عمق الذاكرة.. الإنشاد بالأدوات النحاسية الرنانة.. التى تصنع نوعا من الصدى تفشل كل الأجهزة الحديثة فى صنعه.. بفعل ضخامة عدد المنشدين.. وضيق الشارع وامتداده.. والألوان المختلفة التى يرتديها أفراد الموكب.. وكانت المرة الأولى التى أرى فيها رقص «التنورة».. وبالطبع لم أكن أعرف أنه فن مميز.. صارت له قواعد ومحترفين ومسابقات دولية فيما بعد..

5

أهم ما فى هذا المولد.. كانت الحلوى التى توزع مجانا على الأطفال الواقفين فى طريق الموكب.. كانت أشياء ملونة.. يصعب الآن وصف شكلها

أو طعمها بدقة.. وفى غالب الظن قد اندثرت! لم تكن هناك مواصفات عالمية تتابعها وزارة الصحة.. ولا كانت البدائل كثيرة.. ولم يكن اختراع «إشتر واحدة تحصل على الثانية مجانا» قد عرفه البشر فى الحلمية بعد! وأغلب الظن أن تلك الحلوى كانت تأتينا من طنطا.. فهى شبيهة بتلك التى توزع فى مولد «السيد البدوى».. قبل أن يهوى السفير الأمريكى السابق فى مصر «ريتشاردونى» زيارته وغيره من الأولياء الصالحين.. وهل خطر ببال أى منا أن هذا الطقس المصرى الخالص.. سيحظى فى يوم ما بمشاركة الأمريكان؟!

٦

لم ينشغل أهل الحلمية – كبارا وصغارا – بمعرفة «الرفاعى» صاحب هذا المولد.. أحمد عزالدين الصياد الرفاعى.. حفيد الإمام أحمد الرفاعى.. شيخ الطريقة الصوفية المعروفة بالرفاعية.. الذى ولد بالعراق وعاش بمصر.. ولا اهتموا بتاريخ مسجده وهو أحد أهم مساجد القاهرة الأثرية.. المسجد الذى يضم رفات معظم أفراد الأسر التى حكمت مصر سابقا و «شاة إيران السابق».. المسجد الذى بنته «خوشيار هانم» والدة الخديوى «إسماعيل».. وكان زاوية صغيرة قررت عام 1869 تجديدها.. وشراء المنطقة المجاورة لها.. لتكون مدفنا لها ولعائلتها.. بدأ البناء.. واستمر 40 عاما.. وأشرف عليه أكبر مهندسى مصر وقتها «حسين فهمى» باشا.. وكيل ديوان الأوقاف...

وعلى مستطيل مساحته 6500 مترا مربعا.. بنى على الطراز المملوكى.. وجلبت مواد بنائه من أوروبا.. على غرار مسجد السلطان حسن المواجه له.. ليشبهه فى عمارته الفخمة وضخامة حجمه وارتفاعه.. ومداخله الشاهقة ذات

الأعمدة الحجرية والرخامية.. بتيجانها العربية وأعتابه الرخامية.. ومداخله المغطاة بالقباب والسقوف البديعة.

توقفت أعمال البناء لمدة 25 عاما بعد سلسلة وفيات.. بدأها المهندس «حسين فهمى».. تلته «خوشيار هانم» عام 1885.. ثم ابنها الخديوى «إسماعيل» وتم دفنهما معا بالجامع .. وأثناء حكم «عباس حلمى الثانى» .. تولى «ماكس هرتز» باشا و مساعده الإيطالى «كارلو فيرجيليو سيلفاينى» إكمال البناء.. لينتهى البناء عام 1911.. ويفتتح لصلاة الجمعة عام 1912.. الطريف أن الرفاعى لم يدفن بالجامع.. ولم يدفن بمصر كلها!!

7

السنوات الأولى فى سبعينيات القرن الماضى كانت ساخنة.. سنوات الغليان المدفون.. وبينما كنت أعانى بدراسة منهج الحساب – ولم يكن قد سمى «الماث» بعد – وأجد فى الأمر معضلة كبيرة عصية على الحل.. كان كبار الكتاب وقتها يعانون بشكل آخر.. فقد كان البيان الذى كتبه الكاتب الكبير «توفيق الحكيم» اعتراضا على حالة اللاسلم واللاحرب عام 1973.. ووقع عليه عدد كبير من الأدباء والمثقفون.. كان منهم أديب نوبل الراحل «نجيب محفوظ».. تم عزلهم من مناصبهم.. ومنعهم من الكتابة.. أو التسجيل للإذاعة والتليفزيون.. ومحفوظ كان أكثرهم معاناة.. فقد منع عرض كل أعماله السينمائية.. المأخوذة عن رواياته أو التى قام بكتابة سيناريو لها.. وفى 6 أكتوبر 1973.. تغير المشهد الذى رأيته فى نفس الحى.. لنفس الأشخاص عام 1970 تماما..

لم يكن صوت النقشبندى على مائدة رمضان مثلما كان من قبل.. ولا برامج الإذاعة.. ولا الأحاديث بين باعة الحلمية والمشترين فى الشارع الرئيسى.. شارع القلعة.. كان ثمة شىء ما قد حدث.. فصارت الحياة أكثر حلاوة.. كان انتصار أكتوبر.. الذى خلف حالة انتشاء.. كما خلف غصة فى قلوب بعض المصريين!

8

«جمال مرتجى».. شاب صعيدى كان فى الثلاثين من عمره عام 1973.. بشرة لوحتها شمس «جهينة» فى قلب سوهاج.. بعيدا.. بعيدا.. داخل صعيد مصر.. وعيون شديدة الخضرة.. قامة فارعة.. كان يأتينا فى الحلمية من وقت لآخر.. كنت أراه طويلا طويلا.. عندما يجلس.. أقف بجانبه مستندة بمرفقى إلى ركبتيه.. يحكى بلكنته التى أقف أمامها مشدوهة لأنى لا أفهمها.. لكنى اعتدت طريقته فى الحكى.. رأيته للمرة الأخيرة فى هذا العام 1973.. وقف مغادرا على باب المنزل يودع والدى: أشوفك بخير يا خال.. ورحل.. بعد سنوات وعيت أنه استشهد فى الحرب.. وأنه دفن بمقابر الشهداء فى مدينة السويس.. وأن والدته – عمتى – شأن كثير من أمهات الشهداء.. كانت تقطع المسافة من سوهاج للسويس مرتين كل عام لزيارة قبره.. «جمال» ظلت صورته الأخيرة ماثلة فى ذهنى بملابسه «الكاكى» ونظرته الثاقبة.. ورائحته.. رائحة كل المصريين.. فى هذا الوقت الذى قدم فيه مئات عشرات الآلاف من المصريين أنفسهم طواعية فداء للوطن.. كان المناضل الذى جابت شهرته العالم «أيمن نور» فى الثانية عشرة من عمره!! وكان رئيس الولايات المتحدة الأمريكية فى الثالثة عشرة من عمره!! ولم يكن هناك بعد نفوذ لدولة الجزيرة..

أقصد قطر!! ولا كان قد خطر ببال إسماعيل هنية أنه سيصبح على قمة قضية وطنه فى لحظة استثنائية!!

9

فى السادسة والنصف صباحا.. أشترى خبزا «فينو « من الفرن المجاور لمنزلى فى شارع القلعة.. أنزل درجات السلالم هابطة من شارعنا الفرعى.. إلى فراغ الشارع الرئيسى.. اشتريت الخبز.. وسمعت الحوار الذى وجم بعده كل من كان واقفا للشراء.. عبد الحليم حافظ مات!! لم يصدق الواقفون للوهلة الأولى.. وتبادلوا عبارات تحمل معانى متباينة.. استدرت عائدة أرتقى درجات السلم مختفية عن أنظار كانت شاردة.. كانت علاقتى بعبد الحليم فى ذلك الوقت.. 1977.. شيئا شبيها بعلاقتى بالموسيقى النوبية.. صوت يمس روحك لكنك لا تفهم كلماته.. صغت هذه العلاقة فى بعض المحاولات غير المكتملة لرسم لوحة له.. وظل الأمر عالقا بعدها بعدة أيام.. أحاديث متواصلة وأخبار عن انتحار بعض الفتيات.. أغانيه أسمعها متوالية أثناء عبورى من وإلى المدرسة.. بمحال البقالة واللبن والبن والفول والطعمية.. العقل الجمعى لأهالى الحلمية احتفى به دونما اتفاق.. وبعدها بسنوات طويلة.. عندما شاهدت فيلم «زوجة رجل مهم» للرائع «أحمد زكى.. والمشاهد التى تؤرخ لوفاة عبد الحليم.. كنت واثقة من أن هذا حدث بالفعل.. لكنى لم أكن أدركه وقتها..

وبعدها بعدة أشهر.. انتابت أهل الحلمية حالة من الحنق والغيظ المكتوم.. الذى يخرج أحيانا فى صورة سباب.. على المقاهى.. وبين الجلوس على أبواب

محلات البقالة والحلاقة.. حالة الغليان المكتوم تلك لم تتطور لما أكثر.. ولم تهدأ حتى غادرنا الحلمية.. كان الرئيس السادات قد أعلن استعداده الذهاب إلى تل أبيب!!

10

النزهة المتكررة المحببة.. كانت السير صعودا من شارع القلعة إلى مسجدى الرفاعى والسلطان حسن.. اللذين يواجهان قلعة صلاح الدين من الخلف.. حيث دفن شاه إيران الأخير.. محمد رضا بهلوى.. الزوج السابق للأميرة فوزية.. شقيقة الملك فاروق.. حياته بدايتها ونهايتها كانت دراما رفيعة المستوى.. انهار ملكه بقيام الثورة الإسلامية فى إيران 1979.. وتم نفيه.. فلم يستقبله سوى الرئيس الراحل محمد أنور السادات.. وعندما توفى عام 1980 أمر بدفنه فى مسجد الرفاعى.. فى غرفة رخامية منفصلة.. وضع عليها تركيبة رخامية بديعة للشعار الساسانى للدولة البهلوية.. باسم الشاه وتاريخ ميلاده ووفاته باللغة الفارسية..

أما ما لم يكن يعلمه.. فهو أنه سيدفن فى ذات القبر الذى دفن به والده الشاه رضا بهلوى!! بعد أن خلعته إنجلترا أثناء الحرب العالمية الثانية ونفته إلى جنوب إفريقيا.. ووضعت ابنه محمد على العرش عام 1941.. وبعدها بثلاثة أعوام.. مات فى منفاه.. ونقل جثمانه إلى مسجد الرفاعى.. وكان الشاه – ابنه – متزوجا من الأميرة فوزية.. وبعد الطلاق أعاد جثمان والده إلى طهران.. وبعد أكثر من ثلاثة عقود يعود هو ليدفن فى القبر ذاته!! وبقيت النزهة فى الذاكرة.. وبعدها بحوالى 8 أعوام تخرجت من كلية الآداب منهية دراسة اللغة الفارسية..

11

الكثيرون ممن كانوا يتجولون فى المنطقة بين المسجدين: الرفاعى والسلطان حسن.. والذين اعتادوا على وجود الأجانب باستمرار فى هذه المنطقة.. لم يكونوا يدركون أنه بعد أكثر من 30 عاما سوف تصبح هذه المنطقة قبلة رئيس أكبر دولة فى العالم.. وعندما بثت كل وكالات الأنباء زيارة «أوباما» التاريخية لمصر فى الرابع من يونيو 2009.. لم تكن أيضا تدرك أهمية هذا المكان الذى حرص على زيارته.. كانت رسالته واضحة.. مخاطبة العالم الإسلامى من قلعة للعلم فى العصر الحديث.. جامعة القاهرة.. وزيارة قلعة أخرى للعلم فى القرن السابع عشر.. مسجد السلطان حسن..

وفيما يشبه الجامعة.. كان يضم أربع مدارس لتعليم المذاهب الأربعة الإسلامية: المالكى والحنفى والشافعى والحنبلى.. أنشأه السلطان الناصر حسن ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون.. يحيط بالصحن الواسع الكبير للمسجد.. مساكن للطلبة من عدة طبقات بارتفاع المسجد.. وهو أعظم المساجد المملوكية.. جمع بين ضخامة البناء وجلال الهندسة.. دقة الصناعة وتنوع الزخرف.. دقة الحفر فى الحجر وبراعة صناعة الرخام..

فى السبعينيات.. لم يكن التصوير فى الأماكن الأثرية من ثقافة أهل الحلمية.. فكانوا يكتفون بالجلوس على المقاعد الرخامية.. متابعين لكل الأجانب الذين يحرصون على التقاط الصور.. أمام الباب النحاسى للواجهة الأمامية للمسجد.. المشغول بأشكال هندسية تحصر بينها حشوات محفورة

ومفرغة بزخارف دقيقة.. طولها 150 مترا.. ومفتوح بها شبابيك لمساكن الطلبة..

12

رمضان فى الحلمية كان يعنى لنا الكثير من الأشياء.. ليس من بينها التليفزيون.. ولا الفوازير.. ولا «الست كوم» ولا المسلسلات التى تتجاوز الثلاثين حلقة.. كان يعنى بعض التفاصيل الصغيرة المحببة البسيطة.. الزينات الورقية التى كنا نمضى الأيام الثلاثة السابقة لرمضان فى تجهيزها.. أوراق الكراسات المدرسية القديمة.. عجينة النشا والعديد من بكرات الخيط الغليظ.. وبالطبع النقود التى يتم جمعها من كل أسرة لتوفير تلك الخامات.. مقص وإبداع فى الشكل الذى تكون عليه تلك الرايات الورقية.. بعدها تطور الأمر قليلا ليصبح إضافة بعض اللمبات الملونة.. فى شكل صفوف طولية وعرضية.. وكانت الشوارع الضيقة الكثيرة فى الحلمية تتبارى فى كثافة صفوف الزينات.. وتعدد أشكالها.. الطرشى والفول والزبادى.. الوقوف أمام صهد الفرن الخاص بشهر رمضان للحصول على الكنافة.. الاستماع للقرآن فى الراديو قبل موعد الإفطار بنصف ساعة تقريبا.. والاستمرار أثناء الإفطار وبعده.. تلك كانت تفاصيل رمضان..

وكانت «مولاى إنى ببابك قد بسطت يدى.. من لى ألوذ به إلاك يا سندى.. مولاى.. يا مولاى».. حتى الآن أكثر التواشيح التى تبعث التأثير فى نفسى.. صوت الشيخ سيد النقشبندى.. أبرز المبتهلين والمرتلين الذين أنشدوا التواشيح الدينية فى القرن الماضى.. الرجل المولود فى قرية دميرة فى محافظة الدقهلية عام 1920 .. عاش فى مدينة طهطا بسوهاج بعد انتقال أسرته إليها..

وكان والده العالم الجليل الشيخ محمد النقشبندى هو شيخ الطريقة النقشبندية.. التى كانت تمتاز عن غيرها من الطرق الصوفية.. بالذكر الصامت.. فى القلب دون اللسان.. لذا فقد كانت أقرب للمتصوفة القدامى.. حفظ الشيخ سيد مئات الأبيات الشعرية لأحمد شوقى والعقاد والمنفلوطى.. وكان شغوفا بالقراءة..

13

منذ عدة أيام.. مررت بشارع القلعة داخل سيارة مسرعة.. حاولت اختطاف نظرة سريعة يمينا ويسارا.. تلك السلالم الصاعدة إلى الشوارع الجانبية الفرعية.. «بهجت» البنان.. «عطية» اللبان.. والكثير من المحال الجديدة.. والبشر المختلفون.. والأبنية التى صارت أكبر سنا.. وأكثر اطلاعا على التاريخ والأحداث والحياة.. لكن روح الشارع القديم مازالت تشى بكل الذين سكنوه أو عبروا منه إلى فضاء العالم الواسع.. فى دنيا الله!

الثانية

أيام الغليان فى الإسكندرية!

الإسكندرية.. لم تكن أبدا مكانا للاصطياف بالنسبة لى أو أسرتى.. الإسكندرية كانت دائما مدينة شتوية رائعة.. سيرا أو جلوسا على شاطئها.. بامتداده فى منطقتى محطة الرمل والمنشية.. ببحره الهادر الصامت.. يستدعى الكثير من الأفكار والذكريات.. فتصبح كائنات حية.. فرادى وجماعات.. تخرج من رأسى فتسبح على صفحته الصافية.. فلا يعلو حينها صوت فوق صوت التفكير.. أجيئها كثيرا فى قطار يصل محطتها الرئيسية.. والتى يسمونها محطة مصر.. فى الحادية عشرة والنصف صباحا.. فأمضى اليوم كله حتى تغرق شمسها فى عمق المتوسط.. فأشد الرحال فى قطار السابعة إلى القاهرة.. وقد اختزلت المحافظة الكبيرة داخلى فى هذه المنطقة.. محطة الرمل.. فندق سيسيل.. ووندسور بالاس.. تمثال سعد زغلول الذى يتوسط ميدانه المطل على بحرها الأبيض المتوسط.. كوبرى استانلى ورائحة الليل والأضواء الخافتة والكاشفة.. «روب يور» المدرب الصحفى الأمريكى.. وأول مشروع لتدريب الصحفيين

السكندريين.. الانتخابات الرئاسية والبرلمانية فى مصر 2005.. والشهور الثلاثة الصعبة.. مقاهى المنشية ومطاعم السمك والمحافظ السابق عبد السلام المحجوب.. المعبد اليهودى الذى يتوسط السوق التجارى.. قلعة قايتباى.. انتخابات نقابة الصحفيين.. وما أدراك ما انتخابات نقابة الصحفيين!!

1

فى نهاية يوليو 1995 جئتها بصحبة ثلاثة من زميلاتى فى مجلة «نصف الدنيا».. وصلنا صباحا.. وغادرنا فى المساء.. وفى منطقة باب البحر.. ألحت جملة مألوفة على عقلى.. متكررة.. «يا الله.. يا نور.. يا حق.. يا مبين.. إحى قلبى بنورك.. وعرفنى الطريق إليك».. كنا نخطو مسرعات تحت شمس الظهيرة الخانقة.. دون شعور بلسعات الأشعة المتعامدة.. والجملة مازالت تتردد وتتكرر.. حتى صرت لدقائق معدودة لا أسمع سواها.. قلت فجأة: «أريد زيارة سيدى أبو العباس».. التفتن إلى مندهشات.. فقد كانت الخطة البحث عن مكان لتناول الإفطار.. بعده تبدأ الجولة.. قالت إحداهن: نحن قريبات على كل حال.. نزور ثم نقرر الإفطار.. وفى دقائق كنا نقف فى رحابه.. أسفل درجات سلم مسجده.. «يا الله.. يا نور.. يا حق.. يا مبين.. إحى قلبى بنورك.. وعرفنى الطريق إليك».. كانت كلماته.. التى بقيت عبر قرون مضت.. جميعا نرتدى الجينز.. دخلنا ولم يكن أحد بالمسجد سوانا.. جلسنا جميعا على السجاد النظيف.. نقرأ الفاتحة للرجل الذى رحل منذ أكثر من 800 عاما.. كانت عيناى تدور عبر أركان المكان.. تلتهم أقدم وأهم آثار

الإسكندرية فى منطقة بحرى.. بقبابه المميزة.. يتوسط منطقة يمكن تسميتها بمجمع الأضرحة.. روح الرجل فى المكان.. «شى لله يا سيدى أبو العباس»

2

العارف بالله الشيخ شهاب الدين أبو العباس أحمد بن حسن بن على الخزرجى الأنصارى المرسى.. ينتسب للصاحبى الجليل.. سيد الخزرج «سعد بن عبادة» الأنصارى.. «أبو العباس المرسى».. المعد لطريق التصوف مبكرا.. درس العلم على يد العارف بالله الشيخ «أبى الحسن الشاذلى».. منذ حوالى 865 عاما جاء إلى الإسكندرية.. عام 1244 وعاش فيها 43 عاما.. جاء ينشر العلم.. لم يحدث الناس عن الثعبان الأقرع وعذاب القبر.. خاطب الناس فى تهذيب النفس وحب الحياة والبشر.. لا بترك الحياة الدنيا والاتجاه للحياة الآخرة.. كان مثلا فى ورعه و تقواه.. فعاش أكثر من 800 عاما بعد وفاته.. ليس فقط فى مسجده تبقى روحه.. بل فى كل المناطق التى عبر بها بالإسكندرية.. عامود السوارى.. كوم الدكة.. التى تحمل أيضا لليوم روح سيد درويش واضع بذرة لم تكتمل للموسيقى المصرية.. أبو العباس الذى استقر بمنطقة العطارين.. لم يترك شيئا ماديا.. فلم يؤلف كتابا.. ولا شريطا بكائيا يبعث الاكتئاب.. ينتهى بمجرد الضغط على زر التوقيف.. ترك الكثير من العلامات فى الروح الإنسانية.. وتلك تبقى أزمانا طويلة.. ترك لأهل الإسكندرية روح الدين.. لا نصوصه.. ودفن عام 1287 فى مقبرة باب البحر..

3

خرجنا إلى الشارع.. ومازالت عيناى تلتهم الأبنية والزخارف الخارجية.. متعجبة من كون هذا الأثر كان مجرد مقبرة.. حولتها رؤية للشيخ «زين الدين بن القطان» كبير تجار الإسكندرية إلى مسجد عام 1307 .. على الطراز الأندلسى.. أعمدة رخامية ونحاسية وأعمدة ثمانية الشكل.. وزخارف ذات طراز عربى وأندلسى.. بقبته الغربية يضم ضريحا لأبى العباس وولديه.. مشرفا على الميناء الشرقى للمدينة بالأنفوشى..

المدهش بالنسبة لى كان القبر المجاور للمسجد.. والمدفون فيه الأمير «قجماش الأسحاقى الظاهرى».. والى الإسكندرية.. فى عصر الملك الأشرف «قايتباى».. أعاد ترميم المسجد بعد تهدم بعض أجزائه.. وبنى لنفسه تلك المقبرة دفن فيها بعد وفاة «أبو العباس» بحوالى 190 عاما.. وبعد 376 عاما كان المسجد قد تهدم وساءت حالته.. فقام «أحمد بك الدخاخنى» شيخ طائفة البناءين بالإسكندرية بترميمه و تجديده و أوقف عليه وقفا تولى رعايته.. وفى بداية أربعينيات القرن الماضى.. أنشأ الملك «فؤاد الأول» ميدانا فسيحا سمى «ميدان المساجد».. أو مجمع الأضرحة.. يضم المسجد الكبير لأبى العباس المرسى وآخر للإمام البوصيرى.. وثالث للشيخ ياقوت العرش.. وضع تصميمه الحالى المهندس المعمارى الإيطالى «ماريو روسى»..

خرجنا من ميدان المساجد إلى هواء البحر.. ركبنا «تاكسى» أصفر بلونه المميز لمحافظة الإسكندرية.. فدار شريط الكاسيت لتبدأ بكائية ترويعية تهديدية مدهشة.. ماتوقفت عنده جملة قالها داعية الكاسيت هذا مخاطبا

مستمعيه «من أنت يا حشرة.. من أنت يا تافه.. من أنت يا.....» !!
نظرنا لبعضنا البعض صامتات.. فقد كان قائد السيارة المتجهم.. عاقدا ما بين حاجبيه.. يعبث بلا تركيز فى لحية مشعثة.. يتابعنا عبر المرآة أمامه.. فكانت هذه وسيلة ترويع ثانية!! كان هذا السائق نموذجا للمشهد فى الإسكندرية الآن.. الكثير من اللحى.. الكثير من الجلابيب القصيرة البيضاء.. الكثير من الحنق غير المبرر على المجتمع.. والكثير من اللافتات لمرشحى الإخوان فى محطة الرمل.. تذكرت تفاصيل اليوم كله بعد عودتى إلى القاهرة بعدة أيام.. عندما اكتشفت أنى حامل فى الشهر الثانى.. سعادة غامرة انتابتنى بخاطرة مثيرة.. مباركة ابنتى الوحيدة قبل أن تأتى للحياة فى رحاب «أبو العباس المرسى».. شى لله يا سيدى يا أبو العباس!!

4

منذ بداية العام 2005.. كانت حالة الغليان قد انتابت الشارع المصرى.. حالة من الغليان الإيجابى.. حوارات ومناقشات وأحاديث حول أول انتخابات رئاسية تعددية فى مصر.. منذ إعلان الجمهورية عام 1953.. والاستعداد المتزامن للانتخابات البرلمانية.. دخول تيارات وخروج أخرى.. ومايبدو فى الشارع المصرى أنه نفوذ لحركة الإخوان المسلمين المحظورة.. فى هذا الوقت.. كان المركز الدولى للصحفيين – وهو منظمة مجتمع مدنى أمريكية معنية بالصحفيين حول العالم – شأنه شأن المنظمات الرسمية والأهلية فى العالم كله.. تضع عيونا مفتوحة على التجربة المصرية الانتخابية المرتقبة.. فشد فريقه الرحال إلى القاهرة لمهمة تدريب بالشراكة مع إحدى المؤسسات الإعلامية

المصرية الخاصة.. كانت التجربة بحق مهمة.. للمركز الذى يعمل للمرة الأولى فى مصر.. ولفريق المدربين المصريين.. وللصحفيين الذين سيشاركون فى التدريب.. كانت المهمة تدريب الصحفيين على تغطية الانتخابات الرئاسية والبرلمانية.. تغطية محايدة نزيهة.. فى ثلاث بقاع مصرية مهمة.. الإسكندرية والقاهرة وإحدى محافظات جنوب مصر: المنيا وأسوان والأقصر.. المهمة تستمر 4 أشهر.. عبر 3 فرق تدريبية فى الوقت نفسه.. يضم كل فريق مدربا أمريكيا وآخر مصريا.. تجمعها شبكة من الاتصال وتبادل المعلومات لحظة بلحظة.. وينتج عنها إصدار يوزع مجانا يعرض التجربة التدريبية فى صورة مطبوعة صحفية من 20 صفحة.. كان عنوانها «صوت المواطن».. وموقع يضع فيه كل المتدربين من الصحفيين المصريين موادهم الصحفية.. يتشاركون جميعا فى تحريرها.. والنقاش حولها.. كانت تجربة مدهشة للجميع.. المدربين والمتدربين.. وكان قدرى.. ودونما اختيار.. أن أكون فى فريق الإسكندرية.. برفقة المدرب الصحفى الأمريكى «روب يور».. أمضيت فيها 4 أشهر كانت من أمتع التجارب فى حياتى.. بدأت فى أحد الفنادق – حيث مقر إقامتنا – المطل على كورنيش الإسكندرية.. بالقرب من كوبرى استانلى.. وتلك حكاية طويلة!

5

لم يكن الأمر سهلا.. الثلث الأخير من يوليو 2005.. هبطنا الإسكندرية «روب» وأنا وابنتى التى كان عمرها وقتها 9 سنوات.. محملين بالكثير من الحقائب المتخمة بأوراق العمل وكتبه وأدواته.. وبالكثير من الأمل فى تحقيق نتائج جيدة فى أول دورة تدريب تقدم لصحفيى الإسكندرية.. لم يدر بخلدنا

أبدا ونحن نسير ليلا فى اليوم الأول.. على كوبرى استانلى بأضوائه المتلألئة.. والباعة يفترشون بضاعة متنوعة.. الذرة المشوى.. والترمس.. والحلبة الخضراء.. لم يدر بخلدنا أبدا أن العواصف مجمعة ومتفرقة سوف تبدأ فى اليوم التالى.. قطعنا الكوبرى ذهابا وعودة.. و «روب» لا يخفى انبهاره بما يرى فى أول زيارة له لمصر.. كان منبهرا بالبشر أكثر من انبهاره بجمال الأماكن.. دارت بيننا الكثير من الحوارات قبل أن نركب القطار فى طريقنا للإسكندرية.. وأثناء الرحلة.. عن البشر.. أهل مصر.. فى القاهرة والإسكندرية وكل الأماكن.. كان رجلا يتمتع بسرعة التواصل مع الآخرين.. رغم حاجز اللغة أحيانا.. وحاجز الثقافة أحيانا أخرى.. كان فى الخمسين من عمره.. له ابنه واحدة «إيدى» لا يكف عن الحديث عنها.. والكثير من الأصدقاء فى أنحاء العالم المختلفة.. بهره الكوبرى الذى بنى لتحسين المرور على الكورنيش فى حى شرق.. بتصاميم القصور الملكية.. وإضاءته المميزة.. وصار السير على كوبرى استانلى ليلا.. أحد الطقوس التى حرص عليها طوال 3 أشهر أمضاها فى الإسكندرية.. حتى عندما غادرنا لفندق آخر يبتعد عن الكوبرى..

6

بداية صباح اليوم الأول للعمل.. لم تكن أبدا تنبىء بما هو خلف الستار.. فاق الحضور ما توقعنا.. 35 مشاركا فى التدريب من أعمار وصحف متنوعة.. متفاعلين.. راغبين فى الإحاطة بكل التفاصيل.. وبرنامج التدريب.. مفعمين – أو هكذا بدوا لى حينها – بنشاط الصحفى عندما يستفزه خبر يستوجب الملاحقة.. لكن الأمر كان شديد الاختلاف فى اليوم الثانى.. كل العواصف

هبت فى كل الاتجاهات فى الوقت ذاته.. وبدت ظلال انتخابات نقابة الصحفيين التى كانت على الأبواب - سبتمبر من نفس العام - هى المحرك لموجة الهجوم التى تعرضنا لها فى ذلك اليوم.. لم تلبث موجة الهجوم هذه أن تحولت إلى موجات من الضغوط على الصحفيين المشاركين للانسحاب.. فلم يتبق فى النهاية إلا ثمانية فقط.. استمروا معنا لنهاية الأشهر الثلاثة.. كانت الضغوط على الصحفيين تصل دائما لباب ترويعى.. التحويل لتحقيق نقابى.. وهو أمر لم يكن من باب التلويح.. بل خرج فى صورة منشورات وبيانات صدرت من النقابة الفرعية بالإسكندرية.. تطالب النقابة الأم فى القاهرة باتخاذ هذا الإجراء..

ودارت ماكينة المكالمات الهاتفية بين القاهرة والإسكندرية.. بينى وبين سكرتير عام النقابة وقتها.. الأستاذ «يحيى قلاش».. كانت نبرة «ماذا يريد منا الأمريكان» تعلو.. وتعلو.. فهى الورقة الرابحة دائما فى أى انتخابات نقابية.. بعد أن عبرت النقابات المهنية الخط الفاصل بين أدوارها وأدوار الأحزاب السياسية.. وانقلبت الدنيا رأسا على عقب فى الإسكندرية.. صرنا - كفريق تدريب - مستنزفين بشكل دائم فى معركة جانبية.. مطالبين بالتبرير طوال الوقت.. نتحرك سويا «روب» وأنا.. لفتح قنوات تواصل داخل المدينة الصعبة.. وبدأ سيل من الأخبار اليومية التى تهاجمنا شخصيا وتهاجم المشروع التدريبى بلا توقف.. عبر الصحف أو المواقع الإلكترونية أو فى المنتديات ومقاهى الإسكندرية.. تلك المدينة الكبيرة التى لا تحتفظ بسر أو معلومة حتى الصباح.. ظللنا نعمل مع الصحفيين الثمانية.. طوال عشرة أيام هى مدة الدورة التدريبية الأولى.. نعمل نهارا وبإخلاص معهم.. ونرد على مدار اليوم على الاتهامات التى تأتينا من الغرب والشرق وكل الاتجاهات.. نوضح ونشرح

الهدف من التدريب.. ونرحب بحضور أى جهة متشككة فيما نقدم فى جلسات العمل.. ونمشى ليلا فى طرقات الإسكندرية.. ثلاثتنا.. «روب» وأنا وابنتى.. أو نلتقى بعض من متدربينا الثمانية على مقهى أو فى مطعم.. وكان «روب» يهوى تدخين «الشيشة».. فصارت طقسا يوميا يشاركه فيه المتدربون!!

٧

البشر فى الإسكندرية.. هم علامة على المكان.. هم روح المكان.. رغم أنهم فى بعض الأحيان.. يبدون خارج إطار المكان الذى مازال يحتفظ ببعض ملامحه الكوزموبوليتانية القديمة.. أحيانا ينتابنى شعور بأن تلك المبانى العتيقة.. وهذا المظهر الرومانى اليونانى الإيطالى للمدينة.. قد جرى استبدال مواطنيها بمواطنين آخرين.. لا ينتمون لها.. وهم كغيرهم من مواطنى المدن التى تطل على البحر.. محبون للحياة.. مرتبطون بالمكان.. هادئون.. قليلو الانفعال..

فى تلك الفترة.. نبت خيط رفيع لعلاقة ما لبثت أن توطدت بين ابنتى و «روب».. كانت ابنتى تدرس بمدرسة فرنسية ولم تكن بعد تعرف الإنجليزية.. ولم يكن هو يتحدث سوى الإنجليزية.. ومع هذا.. وكثيرا ما كان يصحبها عبر شوارع محطة الرمل.. عندما أكون مشغولة بعمل.. أو أقوم بتجهيز مادة لتدريب اليوم التالى.. وكنت أندهش.. بأى لغة يتواصلان؟! وكيف تمضى بهما الساعة أو الاثنتين عندما يغادرانى.. فألمحهما من بهو الفندق.. حيث أجلس للعمل.. ضاحكين.. يختتمان حوارا قد بدأ بالخارج.. تعارفا على كل مقاهى

الإنترنت فى المنطقة.. وتعارفا على الكافيتيريات التى تقدم القهوة على الطريقة الأمريكية.. وتبادلا الكثير من الهدايا اليومية الصغيرة.. قلما.. ميدالية.. لبان.. ووقعا كليهما فى غرام الذرة المشوى.. والترمس.. ومتابعة البشر فى كل مكان.. البشر على الكورنيش..

أحب متابعتهم على الممشى المؤدى لقلعة قايتباى.. فرادى.. وجماعات.. وثنائيات.. يتحدثون.. أو يديرون ظهورهم للعالم.. مولين وجههم صوب البحر المظلم ليلا.. أو يأكلون الذرة المشوى.. وكان أكثر ما يجذب «روب» وابنتى.. هى حفلات الموسيقى المصغرة.. التى يعقدها الشباب ليلا فى أحضان القلعة العتيقة.. دف.. ورق.. وتصفيق.. وأغانى قديمة وحديثة.. وبشر يحبون المكان.. ويتحول الأمر لحفل.. وأكاد أقطع بأن 90٪ من هؤلاء البشر لا يعرفون صاحب القلعة الواقعون فى غرامها.. قايتباى!!

8

«قايتباى المحمودى الأشرفى».. سلطان مصر لثمانية عشر عاما حفلت بالحروب.. هو أحد المماليك البرجية.. ملوك الجراكسة.. ولد عام 1412.. آخر من اشتراه الظاهر «جقمق».. الذى أعتقه فصار قائدا فى جيشه.. وبعدها أصبح من أتابك العسكر.. حتى بايعه المماليك بالسلطنة.. عانى خطر العثمانيين.. فأنفق أموالا طائلة وغير مسبوقة لتسليح الجيش.. وكان شديد الاطلاع.. مهتما بالعلم.. ذا نزعة صوفية.. شجاعا فارسا.. عاقلا حكيما..

جنديا محنكا.. بعيد النظر.. لم يترك قلعته فى الإسكندرية فقط.. بل فى دمشق والحجاز والقدس.. أما فى مصر فله قلعة باسمه أيضا بمدينة رشيد.. ووكالة قايتباى بجوار الجامع الازهر.. ووكالة أخرى بباب النصر والسروجيه.. ومدرسة الروضة.. وتوفى بالقاهرة عام 1496.. بعد أن عاش 84 عاما.. كان شاهدا فيها على الكثير من الأحداث..

84 عاما.. فترة قصيرة فى عمر الزمن.. طويلة فى عمر البشر.. وعم «عبد الحميد» ذو الأعوام الأربعة والثمانين.. القابع يوميا فى ركن ناء من أركان الممشى المؤدى للقلعة.. مفترشا الأرض وأمامه أدوات مهنته.. بعض الفحم المشتعل.. نصف جوال من الذرة النيئة.. وبعضها على الفحم.. تفعل بها النيران.. ما تفعله الأيام بالبشر.. اعتدت طوال الأشهر الثلاثة الاستماع إليه.. ولم تكن ذاكرته أو قدراته الجسدية تجارى حبه أو رغبته فى الحكى.. شاهد على بناء أشياء.. وهدم أخرى.. فى تلك المدينة المبهجة.. تختلط عنده أحيانا أشياء عاصرها.. وأخرى رويت له.. ومما حكى مرات ومرات.. مشاهدته بناء سيسيل «طوبة طوبة»!!

9

وسيسيل واحد من أقدم فنادق المدينة و أفخمها فى القرن العشرين.. مطلا على الكورنيش من زاوية.. وميدان سعد زغلول ومحطة الرمل ووسط المدينة من زاوية أخرى.. بنى عام 1929.. وكان عمر عم «عبد الحميد» بائع

الذرة 8 سنوات.. مالكه كان الثرى الألمانى «ألبرت متزجر».. الذى أسماه باسم ابنه.. وهو نتاج أنامل المصمم المعمارى الإيطالى «جوسيبى أليساندرو لوريا» المولود فى المنصورة عام 1888.. صممه على الطراز الفلورنسى الذى كان يميز المدينة كلها.. طوابقه الخمسة تضم 82 حجرة و ثلاثة أجنحة.. ذات أثاث كلاسيكى وتحف قديمة.. وشرفات بلمسات شرقية.. دفتر الزيارة يحمل توقيعات الكثيرين ممن مروا عليه: محمد نجيب، ونستون تشرشل، مونتجمرى، الملك فيصل بن عبد العزيز، جوزفين بيكر، سيسل دوميل، أجاثا كريستى هنرى مورألفيس بريسلى، نجيب محفوظ، لورانس داريل، عمر الشريف، محمد على كلاى، طه حسين، أم كلثوممحمود المليجى، فاتن حمامة، مصطفى النحاس.. لذا فهو مكان يحمل بصمة البشر.. وقد روى لى عم «عبد الحميد».. أنه صافح عمر الشريف ومحمد على كلاى ومحمود المليجى على بابه ذات يوم.. وأنه التقط صورا تذكارية عند قاعدة تمثال سعد زغلول فى الميدان مع نجيب محفوظ.. سقطت عينى على التمثال عفوا.. فقد كان موليا ظهره للميدان.. متجها كليا إلى البحر!!

10

فى اليوم الأخير للدورة الأولى التى انتهت بداية أغسطس 2005 .. توجهت لمبنى المحافظة.. دون موعد.. وقدمت كارتا شخصيا يحمل اسمى وصفتى كصحفية بجريدة الأهرام.. وكان معى «روب».. طلبنا مقابلة المحافظ.. وكان الدكتور عبد السلام محجوب.. استقبلنا الرجل بترحاب..

وشرحت له كل ما تعرضنا له منذ وطئت أقدامنا أرض الإسكندرية.. فقال لى: أخطأتم حين لم تأتوا إلى منذ اليوم الأول.. استأذنته فى العودة لدورات أخرى.. قال: مكتبى مفتوح لكم فى أى وقت.. والإسكندرية عكس ما قد تبدو.. مدينة راغبة فى العبور للأمام..

نشرت أعمال الصحفيين على الموقع بنهاية الدورة التدريبية الأولى.. جنبا إلى جنب مع أعمال زملائهم فى دورات القاهرة والمنيا التى تمت فى الوقت نفسه.. واتسعت دائرة الحوار الصحفى عبر الإنترنت فى المحافظات الثلاثة.. وأقمنا دورة ثانية.. وثالثة.. وفى المرة الرابعة.. جئت الإسكندرية وحدى.. لم يكن معى «روب».. فقد مات فى القاهرة.. عشية السفر إلى الإسكندرية لدورة جديدة.. كان هذا فى اليوم الأول من رمضان.. 2005.. وتلك حكاية أخرى!!

الثالثة

شارع الجلاء.. شاهد على القاهرة!

ليست بكائية على الشارع.. ولا على بشر عرفتهم ولمستهم ورحلوا.. هى قصة عمر.. عشته فى هذا الشارع.. ببناياته وبشره.. فصار عنوانى.. الأهرام.. أبى.. وعمى المرحوم حسين شاهين.. فرقة الأهرام المسرحية.. سناء البيسى.. وأستاذى سامى فريد.. أول قصة منشورة باسمى فى الأهرام المسائى.. «الوطواط « أشهر شقى فى منطقة بولاق أبو العلا.. شارع الصحافة.. والنادى الإيطالى..

1

لا أذكر المرة الأولى التى مشيت فيها فى شارع الجلاء.. لكنى أذكر الكثير من التفاصيل المرتبطة بهذا الشارع.. المبنى القديم لمؤسسة الأهرام.. والمبنى الخلفى لمخازن الأهرام – بأنواعها –.. وهو مكان المبنى الحديث الذى بنى منذ سنوات قليلة.. فى بداية الثمانينيات من القرن الماضى.. أذكر جيدا زياراتى المتكررة لأبى المسئول عن هذه المخازن فى هذا المبنى المتواضع.. وكنت طالبة بالجامعة.. كان عبارة عن دور واحد.. ذو ساحة واسعة ممتدة أمامه.. مخازن ورقية ومعدات وأجهزة.. يرد إليها كل أطياف التجار من المشترين لما يطرحه

الأهرام للبيع.. «الوطواط» أشهر تجار منطقة السبتية.. الكاتبة سناء البيسى.. عمى الراحل حسين شاهين رئيس قسم الاستماع السياسى بالأهرام.. الصحفية ماجدة مهنا.. أستاذى سامى فريد أول من أخذ بيدى فى عالم الصحافة الصعب البراق.. أول قصة نشرت لى فى الأهرام المسائى.. وأول إحباطاتى فى مجلة نصف الدنيا.. فرقة الأهرام المسرحية.. ذاك العالم المبهر الذى أخذنى فى خضمه.. فعشقت الكتابة والاستماع للموسيقى والمسرح وتصميم الملابس والتمثيل أيضا.. شارع الجلاء بناديه الإيطالى.. ومستشفاه العريق للولادة.. وبهو الأهرام الرئيسى.. يا شارع الجلاء.. مشيتك أنا مرات بالألم.. ومرات بالغضب.. ومرات بالهنا.. وطوال الوقت مشيتك بالأمل!!

2

تسمية شارع الجلاء بهذا الاسم.. الفضل فيها يرجع للكاتب الصحفى الراحل مصطفى أمين..

وقصته من جذورها تعود لبداية الأربعينيات من القرن الماضى.. عندما زار شارع «فليت ستريت» فى لندن.. نبتت فى ذهنه الفكرة.. واعتملت طوال الفترة التى أمضاها هناك.. «فليت ستريت» هو شارع الصحافة فى لندن.. وعندما عاد لمصر.. ظلت الفكرة فى ذهنه حية.. أصدر مع توأمه على أخبار اليوم عام 1944 من سطوح أحد العمارات السكنية فى شارع قصر النيل.. ولكن ظلت فكرة أن يكون هناك شارع للصحافة فى عمق ذاكرته.. على غرار ما رأى فى لندن.. وبعد عام من صدور أخبار اليوم.. قرر الانتقال إلى منطقة

أخرى وبناء دار صحفية بحق.. بقدر إمكاناته فى ذلك الوقت.. فاختار شارع «وابور النور».. ووضع حجر الأساس لمبناه الجديد فى نوفمبر عام 1945..

شارع «وابور النور» كان شارعا تخشى الشرطة دخوله!! موطنا للصوص ومدمنى المخدرات.. والهاربين من العدالة ذو طرق ملتوية.. وخرائب يتوه من يحاول دخولها.. أما شارع الجلاء.. فكان يسمى شارع «القشلاق».. وهو حى يصل قشلاق قصر النيل الإنجليزى.. بمحطة مصر.. وكان يسير فيه قطار للسكة الحديد..

فكر مصطفى أمين فى إقناع بعض الصحف الأخرى للانتقال لنفس الشارع.. فلم يفلح إلا بنهاية الاحتلال الانجليزى.. فشنت أخبار اليوم حملتين لتغيير اسم الشارعين.. القشلاق الذى صار الجلاء.. وبدأ يتغير ببناء عمارة بنك التنمية الصناعية.. ومستشفى السكة الحديد.. وبعض العمارات الأخرى.. و «وابور النور» الذى صار «الصحافة».. ثم واصل مصطفى أمين حلمه بإقناع نقابة الصحفيين وجريدة الأهرام بالبناء فى نفس المنطقة.. ليتحول إلى شارع للصحافة بحق.. هذه المحاولات أسفرت عن انتقال الأهرام بالفعل من مبناها بشارع مظلوم إلى شارع الجلاء فى فبراير عام 1968..

التغيير الذى صنعه مصطفى أمين لم يكن فقط فى أسماء الشوارع.. ولا فى شكلها بانتقال صحف إليها.. لكن فى مضمونها بتحويلها من خرائب إلى أماكن لبعث الفكر والثقافة والاستنارة..

3

فى نهاية الثمانينيات من القرن الماضى.. جئت مبنى المخازن كثيرا كمتعاون مع فرقة الأهرام المسرحية.. فرقة الهواة التى قال عنها سمير غانم فى فيلم «أميرة حبى أنا»: سوف ننافس فرقة الأهرام المسرحية.. من أقدم فرق الهواة المسرحية.. التى بدأت فى ستينيات القرن الماضى.. فقدمت روائع المسرح المصرى والعالمى.. على مسارح الدولة الراقية.. الأوبرا.. الجمهورية.. السلام.. وغيرها.. كنت أحمل كارنيها بصورتى تعلوه كلمة «متطوع».. وكثيرا ما كنت أصطحب زملاء الجامعة لمشاهدة البروفات التى كانت تتم فى المخازن.. زملاء الدراسة المداومين على حضور عروض فرقة الأهرام سنويا.. كانوا مداومين أيضا على حضور البروفات.. معى أو بدونى.. وكثيرا ما كنت ألتقى به.. مواظبا على حضور تلك البروفات أيضا.. «الوطواط».. كان هذا لقبه.. وكان معتزا به.. وبمرور الوقت نسى كثيرون من المتعاملين معه اسمه.. أو تناسوه.. كان مغرما بالمتابعة.. والتحية بالتصفيق على جملة أو حركة أعجبته.. وكنت ألقاه دائما قبل الموعد بين مبنيى الأهرام القديم والجديد.. بوجهه الباش.. الباسم.. وهذا التناغم بين شعره الأبيض ووجهه المائل للحمرة ولحيته الصغيرة البيضاء.. منمق الملابس.. واثق الخطوة.. طويل القامة..

«الوطواط».. أى الخفاش.. مخلوق الليل الذى لا يرى.. سائق القطار الذى مارس عملا.. يراه هو بطوليا.. فى معسكرات الاحتلال الانجليزى فى الأربعينيات من القرن الماضى.. يستولى على معدات ومأكولات وملابس.. ويعتبرها حقا له يتصرف فيه بالبيع كما يشاء.. «من سرق يسرق وهذا حلال»!! كانت هذه عبارته التى يستخدمها ضاحكا.. عندما يداعبه أحدهم حول هذه المرحلة من حياته.. «سرقوا وطنى.. فسرقتهم حلال.. الله سوف يثيبنى

عليها»!! كان يسافر لأداء فريضة الحج سنويا.. ويفخر بأنه سارق معسكرات الإنجليز!!

حكاء عبقرى.. واسع الاطلاع.. عميق الخبرة فى الحياة.. عاشق للأهرام.. البناية والبشر والأوراق..

4

عامين من البكاء شهدهما معى شارع الجلاء.. 1992 و1993.. مشهد البكاء المتكرر كثيرا.. عند ركوبى السيارة بجوار والدى.. مغادرة «مجلة نصف الدنيا».. وحتى ارتدادنا إلى شارع رمسيس فى الطريق إلى المنزل.. حدائق القبة.. دخلت «نصف الدنيا» بعد تخرجى بأربعة أعوام.. عملت خلالها فى تصميم أغلفة الكتب.. وأشياء أخرى.. وكانت المحطة الواجبة التى طالما عملت عليها منذ كنت طالبة فى المرحلة الثانوية.. الصحافة.. قابلت الكاتبة «سناء البيسى» رئيسة التحرير.. كنت أعشق كتاباتها المتميزة.. ولغتها الرشيقة.. واستطراداتها المشوقة.. وكانت امرأة باسمة طوال الوقت.. مجاملة طوال الوقت.. محبة للآخرين طوال الوقت.. فبدأت معها مفعمة بالكثير من الأمل والحيوية والإصرار.. وبعد عامين.. خرجت من «نصف الدنيا» بالقليل من الأمل.. والقليل من الحيوية.. والكثير من الإصرار.. الإصرار على الوجود فى هذا الوطن الصغير.. الأهرام.. لم ينشر لى حرف فى هذه المجلة.. رغم عملى المتواصل.. وابتسامتها التى لا تفارقها معى.. ولم أتقاضى قرشا واحدا.. رغم ترحيبها بى.. وماقدمته من موضوعات صحفية.. وكلما تحرك مستقبلى خطوة

بمذكرات تعيين يوافق عليها رئيس مجلس الإدارة إبراهيم نافع.. تدخل مكتبها فلا تخرج.. رغم تشجيعها لى.. وكان مكتب زميلى فى أرشيف المجلة «مدحت عرابى».. هو مستقرى وحائط المبكى لى طوال العامين.. كانت لدى قناعة بانتمائى لهذا المكان.. لأنى أملك القلم.. ولم يكن لدى أدنى استعداد للتفريط فى تفاؤلى.. رغم كل هذا البكاء.. وخرجت من «نصف الدنيا».. ودخلت لأول مرة صالة التحرير عضوة فى قسم المرأة.. وقد القيت عامين من العمر خلف ظهرى.. مقبلة على الجديد.. 19 عاما مضت.. أذكر جيدا المرة الأولى التى دخلت فيها هذه الصومعة المرعبة إنسانيا.. بالنسبة لى على الأقل.. بسنواتها التى تجاوزت المائة عام.. والتى مازالت رهبتها داخلى.. كشمعة أبدية لا تنطفىء.. أذكر الأخوين تكلا.. اللذين أوقدا تلك الشمعة.. فحنق عليهما من يعشقون لعن الظلام!!

5

قال لى أستاذنا الشاعر العبقرى «سيد حجاب» ذات يوم: «الإسكندرية كانت بداية كل ما له علاقة بالفن والثقافة والإبداع فى مصر.. أول تيار موسيقى مصرى كان لسلامة حجازى وسيد درويش.. وأول عرض سينمائى .. التصوير الحديث «محمود سعيد».. الشعر العامى «بيرم التونسى».. وجريدة الأهرام».. من الإسكندرية فى 5 أغسطس 1865.. حيث صدر العدد الأول.. فى حى المنشية كصحيفة أسبوعية.. فى 4 صفحات فقط.. من قطع 43 سنتيمتر طولا.. و30 سنتيمتر عرضا.. مهتمة بالأخبار الخارجية.. فقد عاصر صدورها الحرب التركية – الروسية.. وصفها د. طه حسين بأنها «ديوان الحياة

المعاصر».. وهو بالمناسبة عنوان لباب قدمه الراحل المؤرخ د.يونان لبيب رزق فى الأهرام لسنوات طويلة.. صدرت الأهرام بعد تعهد الأخوين تكلا بعدم الخوض فى السياسة!!

فى أكتوبر من نفس العام أصدر الأخوين تكلا صحيفة أخرى يومية باسم « صدى الأهرام «.. لتكون أول جريدة مصرية يومية..

الأهرام غيرت تماما النظرة لمهنة الصحافة.. فصارت مهنة محترمة.. من قبل لم تكن كذلك.. فقد استخدمت فنون فى الصحافة لم تكن معروفة فى مصر وقتها.. مثل الحديث الصحفى مع كبار الساسة ورجال الفكر.. فقد أجرى بشارة تكلا حوارا مع الخديوى أسماعيل.. أما أول رحلة صحفية قام بها مندوب للأهرام فكانت لبلاد الشام.. وفى الفترة بين الحربين العالميتين.. زاد عدد صفحات الاهرام.. وكانت سباقة على كل الصحف باستخدام ماكينات طباعة متقدمة سنة 1920.. وإقامة شبكة من المراسلين فى دول مختلفة من العالم لأول مرة.. يغطون أهم مناطق الأحداث فى العالم كله.. كسفراء للوطن كله فى هذه البلدان.. بكل هذا التاريخ الضخم الذى يسلحهم.. وليسوا مجرد مراسلين.. وعندما دخلت الأهرام.. فهمت أن الابتعاث كمراسل للأهرام.. لا تحمل لدى كثير من المراسلين القيمة التى يفهمها الآخرون.. ومنذ 4 سنوات فهمت أيضا أنه حتى مالكى القرار فى المؤسسة.. لا يدرك أيضا قيمة أن يكون للأهرام مكتب أو مراسل فى الأماكن المهمة فى العالم!! وتلك مصيبة بالطبع.. وتصفية مكاتب الأهرام بالخارج.. كانت مصيبة أخرى!!

6

شارع الجلاء بالنسبة لى.. يعنى الأهرام.. والأهرام تعنى وطن قديم.. كبير.. ذا قيمة كبيرة جدا.. قيمته فى أنه كان الحضن الذى احتوى كل الأطياف.. والجنسيات.. والأهواء.. رحابة الصدر.. واتساع الأفق.. والليبرالية الحقيقية.. مثلما مصر.. الوطن.. للمصريين وغير المصريين على مر العصور.. تدرك أنها كبيرة.. ويدركون أيضا.. فاتحة ذراعيها منذ قرون.. لكل العابرين على أرضها.. وكثيرون عشقوها.. جاءوها عابرين.. ثم لم يلبثوا أن فقدوا القدرة على فراقها.. وكثيرون منهم حصلوا على جنسيتها بجانب جنسياتهم الأم.. وآخرون ظلوا لسنوات يناضلون للحصول على جنسيتها.. لا أتحدث عن العرب فقط.. أتحدث عن أوروبيين أيضا..

وفى شارع الجلاء قصة إيطالية مصرية قديمة.. تقف شاهدة على ما أقول.. بناية حمراء اللون.. بابها حديدى أسود اللون.. ملتصقة بمبنى القنصلية الإيطالية.. فى مواجهة مستشفى الجلاء للولادة.. النادى الإيطالى.. أقدم نادى للجالية الإيطالية فى القاهرة.. قامت بشراء أرضه عام 1901 وكان يقدر عدد أفرادها فى مطلع القرن الماضى فى القاهرة 17 ألفا.. وفى عموم مصر 40 ألفا.. أنشأت مدارس ابتدائية وثانوية وتجارية عام 1906.. تقوم بتعليم اللغات: الإيطالية والفرنسية والإنجليزية والعربية.. وفى عام 1939 زاد عدد أفراد الجالية إلى 60 ألفا.. فزادت الأنشطة والأفكار التى لم تكتمل.. كما روى لى «بيير بايوكى» مدير النادى.. فقد قامت الحرب العالمية الثانية عام 1940.. فأغلقت المنشأة.. وتحولت إلى معتقل لمن زاد عمرهم عن 65 عاما..

من الإيطاليين.. الذين عوملوا كأعداء!! وكان القرار للحكومة البريطانية.. بايوكى إيطالى حمل الجنسية المصرية بعد صراع 18 عاما للحصول عليها.. ولد لعائلة إيطالية أقامت فى مصر منذ القرن التاسع عشر.. يقول أنه: إيطالى بنسبة 100٪ ومصرى بنسبة 100٪.. دائما ما يقول: «عندنا - يقصد مصر - نفعل كذا وكذا»

وفى عام 1947 وبعد انتهاء الحرب.. تسلمت الحكومة الإيطالية البناية.. وهنا فكر مجموعة من الشباب الإيطاليين المقيمين فى القاهرة فى إقامة نادٍ للجالية.. تقام فيه أنشطة رياضية.. ثم تحول بمرور الوقت لنادٍ اجتماعى.. وبحلول الألفية الثالثة وصل تناقص عدد الجالية لذروته فأصبح 2900 فرد.. يضم النادى إضافة لأعضائه من الإيطاليين شخصيات مصرية بارزة.. وجمعيته الأهلية المؤسسة طبقا لقانون الجمعيات الأهلية المصرى عام 1865 لمساعدة الرعايا الإيطاليين المحتاجين للمساعدة.. تملك مستشفيات الإيطالى واليونانى بالعباسية.. تغطى نفقاته بدوران الاستثمار فيه.. «بايوكى» حاصل على وسام فارس.. وضابط مبجل من الجمهورية الإيطالية.. فى النادى الإيطالى.. التقيت للمرة الأولى بالمستشار المفكر سعيد العشماوى.. الذى أحتفظ لنفسى عنده بمكانة تتيح لى لقاءه ومهاتفته.. واستقبال مكالماته التليفونية الشحيحة كما هو معروف عنه!!

٦

المستشار سعيد العشماوى يكتب فى موضوعات شائكة ومعقدة ببساطة صعبة.. حواراتى معه دائما موضوعها الفكر والكتابة.. وهو موضوع لا أمل.. ولا يمل من الحديث فيه.. الكتابة عشق.. الكتابة حالة تعبد.. الكتابة حالة

حكى متواصل مع الآخرين.. وكلما كتبت.. تبقى الكتابات الخضراء الأولى.. رغم عدم نضجها.. ذات مكانة داخلى.. وأول من تلقف تلك الأجنة.. ومارس معها حنو الأم.. كان الكاتب الصحفى أستاذى «سامى فريد».. كان هذا نهاية عام 1992.. كنت ملتحقة بمجلة «نصف الدنيا» مع وقف التنفيذ!! فقررت الخروج لدائرة أكثر رحابة.. كنت أعرفه من قبل لكنى لم ألتقيه.. وفى مرحلة الشك فى الذات.. ذهبت إليه بمكتبه بالدور الرابع بالمبنى القديم لجريدة الأهرام.. محملة بملف أحمر اللون يحمل كل ما كتبت.. موضوعات صحفية.. وقصص.. وحتى لوحات مرسومة.. طرقت بابه ودخلت.. قلت: أريد رأيك.. لو ما أحمله يصلح لأن يكون صحافة أو كتابة.. أو أنسى الفكرة برمتها!! نظر للملف الأحمر بيدى.. مد يده والتقطه منى.. وبدأ يقرأ..

سنوات الصمت.. التى مضت وهو يقرأ.. انتهت بأن رفع عينيه من الورق وقال لى: «يديك تتلف فى الحرير».. جملة لن أنساها ما حييت.. ومشهد أذكر تفاصيله.. محفورة فى الذاكرة.. ورجل أدين له بكل ما أنجزته منذ 19 عاما.. وما سوف أنجزه مستقبلا.. أستاذى «سامى فريد» حرضنى على الكتابة فى الصحافة.. فعملت معه فى صفحة أشرف عليها فى الأهرام المسائى.. «لقاء الأحد».. وحرضنى على الكتابة فى الأدب.. فأصدرت أول مجموعة قصصية مشتركة.. حرضنى على الأمل وكانت لدى بذرة حية.. فبقيت بعدها أحرص عليه.. مهما طال انقطاع التيار الكهربى.. وساد الظلام.. أستاذى «سامى فريد».. أطلق يدى.. فقدمت كل ألوان الصحافة..

8

شارع الجلاء بالنسبة لى يعنى الأهرام.. بكل علاماته المميزة.. وبناياته المتراصة بجوار بعضها البعض.. قسم شرطة الأزبكية.. مبنى الاتحاد العام لعمال مصر.. دخلته مرات فى عروض لفرقة الأهرام المسرحية.. وشاهدته مرات وعلى أبوابه يقف المعتصمون والمحتجون.. حاملين لافتات المطالب.. شاهدت على بابه الفنان الكوميدى الراحل «عبد المنعم مدبولى» مرات.. فى الفترة التى استأجر فيها مسرحه.. وأسماه مسرح «المدبوليزم».. مجمع محاكم الجلاء.. برمز العدالة معصوبة العينين التى تعلو واجهته فى مواجهة مبنى الأهرام.. والنسر الحجرى الشهير.. باسط الجناحين.. الذى يستقر أمام واجهة الأهرام.. وكأنما شاهد على تلك العدالة.. ذاك النسر الذى تحرك من مكانه.. بفعل العشوائية.. ليتراجع للخلف.. فلا يراه العابرون كما كانوا.. ولا هو يشهد على تلك العدالة أمامه.. يصبح فقط شاهدا على أنواع وألوان وموديلات السيارات.. التى يصفها أصحابها تحت جناحيه.. كان المشهد عبثيا جدا عندما رأيته لأول مرة.. فقد تحول هذا الرمز الجبار فى يقين الجميع.. وفى الثقافة المصرية القديمة.. إلى مجرد حارس لسيارات لا يعرف أصحابها قيمتها.. فقد اشتروها بالتقسيط دون حاجة لذلك!!

شارع الجلاء فى يقينى يعنى الأهرام.. والأهرام فى ضميرى تعنى.. كل هؤلاء الذين كتبوا سطورا على أوراقها الصفراء القديمة.. وكل الذين صفوا فيها حروف الرصاص.. ليكملوا «طبخ» الكلمة.. كل الذين حملت أجهزة الأهرام وآلاته وطرقاته وجدرانه رائحة عرقهم أثناء العمل.. كل رؤساء

التحرير القدامى.. سليم وبشارة تكلا.. وخليل مطران.. وداوود بركات.. جبرائيل تكلا.. الذى قام بعملية تطوير كبيرة فى الصحافة والتقنيات.. الذى قيل عنه فى عهده: «الأهرام سبقت الصحف الأخرى بعشر سنوات.. وكان هو سبق الأهرام بمائة عام «!! هيكل.. وعلى حمدى الجمال.. وعبد الله عبد البارى.. إبراهيم نافع.. كل الذين قدموا.. وحتى الذين أخروا.. لأنهم دللوا على أن الأهرام سيظل واحة للتنوير..

9

هكذا أرى شارع الجلاء.. بعيون أهرامية.. وهكذا أرى الأهرام بعيون مصرية.. فالأهرام جنسية.. محل النشأة فيها شارع الجلاء.. هكذا جواز سفرى عبورا لكل مطارات الصحافة.. جواز سفر أشرف به وأحتفى.. فأضع فيه الكثير من التفاصيل.. غير المعهودة فى جوازات السفر.. مركزه للدراسات السياسية والإستراتيجية.. ومركزه للإدارة والحاسبات الإلكترونية.. ومركزه للميكرو فيلم.. ومركزه للترجمة والنشر.. الذى ينقل من وإلى 14 لغة بألوان المعرفة.. المعتمد من الأمم المتحدة والمنظمات التابعة لها فى ترجمة وثائقها ودراساتها.. وكالته للإعلان.. ومطابع التجارية.. وشركاته الاستثمارية.. هذا هو جواز سفرى للمرور بشارع الجلاء.

الرابعة

سيناء.. أرض المثلث الذهبى!

مذاق المرة الأولى دائما لا ينسى.. والمرة الأولى التى زرت فيها محافظة جنوب سيناء.. مازالت بكل تفاصيلها فى عقلى وقلبى أيضا.. انفعالات الساعات الخمس.. فى أتوبيس ضخم.. ضم 35 صحفيا وصحفية.. من مختلف وسائل الإعلام المصرية.. ذاهبون لحضور احتفالات العيد القومى للمحافظة عام 2002.. صخبهم.. وقفشاتهم.. وضجيجهم.. كان شيئا فى خلفية الوعى تماما بالنسبة لى.. فقد ذهب كل تركيزى إلى تلك البقعة الغالية على قلب كل مصرى.. المساحات الشاسعة من الجبال الملونة.. رمال حمراء وصفراء وبنية اللون.. لوحة بديعة تخلب العقول.. وبعض جمل من الخطاب الشهير للرئيس الراحل أنور السادات.. عند إعلانه الاستعداد الذهاب إليهم «فى عقر دارهم».. تقفز من أعماق الذاكرة.. فتغزل لوحة من الموزاييك شديد

التأثير.. عن هذه البقعة التى لم ندرك جميعا.. وقت أن قال السادات كلمته.. أهميتها.. ومكانتها فى عمق الوعى الجمعى المصرى.. عندما هبط الأتوبيس فى أو المحطات.. الطور.. عاصمة المحافظة.. نزلنا بفندق بسيط.. كل عمالته من صعيد مصر.. قطعوا المسافة الطويلة.. من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال.. بحثا عن الرزق.. ومن الطور إلى شرم الشيخ.. ثم نويبع.. فدهب.. وطابا.. واللقاء الأول وجها لوجه مع الإسرائيليين.. وكان دليلنا.. زميلى الراحل الأستاذ فتحى عبد العال.. الصحفى ومدير مكتب الأهرام فى محافظة جنوب سيناء..

1

«الأولة قلنا جايينلك وجينالك.. ولا تهنا ولا نسينا.. والتانية قلنا ولا رملاية فى رمالك.. عن القول والله ما سهينا.. والتالتة إنتى حملى وأنا حمالك.. صباح الخير يا سينا».. مطلع أغنية عبد الحليم الشهيرة.. التى كتبها عبد الرحمن الأبنودى.. ولحنها كمال الطويل.. ظلت تلح على.. فأغنيها مع نفسى.. وأنا أتأمل تلك اللوحة الإلهية البديعة.. التى صاغتها الطبيعة من الرمال الملونة.. كانت المرة الأولى التى أرى فيها رمالا ملونة.. حمراء.. وبيضاء.. وصفراء صفرة مضيئة.. والجبال الحادة فى شكل زاوية قائمة.. تضيق أحيانا.. فيضيق الطريق الملتوى المتعرج.. ويهبط الظلام النهارى المحبب.. وتنفرج أحيانا.. فينسكب ضوء شمس الظهيرة على كل من فى الأتوبيس الضخم.. لاحت لافتات الترحيب على الطريق.. تؤذن بالاقتراب من محافظة جنوب سيناء.. مئات الصور تتزاحم فى عقلى.. تختلط فيها صور الدمار.. مع صور البناء.. وصور للرئيس الراحل.. أنور السادات.. ملوحا بيديه مهددا تارة.. ومبتسما

بردائه الأبيض المميز.. يهبط فى مطار بن جوريون تارة أخرى.. وعلم بلادى فى خلفية كل الصور.. يرفرف بألوانه الأحمر والأبيض والأسود.. منفذ بلادى الذى تكسرت على أبوابه أحلام الطامعين إلى عبور مصر على مر العصور.. منذ الهكسوس فى الدولة الفرعونية الوسطى.. وحتى حرب الشرف فى 1973.. ومرورا بالمغول.. والممر الذى عبره الأنبياء.. الراحل الجميل «فتحى عبد العال».. يتنقل بين مستقلى الأتوبيس.. عاشق دروب جنوب سيناء.. التى تقتسم مساحة شبه جزيرة سيناء مع جارتها الشمالية.. محافظة الجنوب التى تضم 5 مراكز إدارية.. 8 مدن.. و8 وحدات محلية.. و81 تجمعا بدويا.. تحتل حوالى 30 ألف كيلو مترا مربعا.. مراكزها: طابا.. دهب.. نويبع.. رأس سدر.. شرم الشيخ.. سانت كاترين.. والعاصمة الجنوبية طور سيناء.. أو «الطور» كما يسميها السيناويون!

2

تحت شمس الظهيرة القاسية.. توقفنا فى أول المحطات.. «طور سيناء».. أقدم مدن المحافظة.. والتى تعود للعصر الفرعونى.. كما تنبىء آثار قرية «الوادى».. المدينة التى امتزجت فيها حضارات عدة.. على مساحة 5000 كيلو مترا مربعا.. ميناء منطقة «الكيلانى» أكبر ميناء إسلامى فى المدينة.. والذى صار الميناء التجارى الرئيسى لمصر على البحر الأحمر فى العصر المملوكى.. كما كشفت بعثة تنقيب مصرية يابانية عن عملات قديمة ترجع لهذا العصر.. فى الوقت الذى كان فيه ميناء السويس ميناء عسكريا فقط.. وفى العصر العثمانى..

تحولت حركة التجارة المصرية من ميناء الطور إلى ميناء السويس الذى يبتعد عنها 275 كيلو مترا حتى الآن..

رغم قسوة الشمس فى شهر إبريل.. إلا أن طقس المدينة كان معتدلا.. فهى تتمتع بطقس مستقر طوال العام.. كما تتمتع عن غيرها من مدن المحافظة.. بوفرة مصادر مياه الآبار العذبة الصالحة للشرب.. عندما دلفنا للفندق البسيط.. كان طعام الغداء فى انتظارنا.. سمكا طازجا خارجا لتوه من البحر.. فالصيد مهنة قديمة لأهل الطور.. رغم بعض الصعوبات الحالية.. فقد كانت فى وقت من الأوقات هى سلة السمك الأولى التى تطعم مصر كلها بأفخر أنواع الأسماك والفسيخ.. جلسنا إلى طاولة الطعام.. يقوم على خدمتنا شباب أسمر الوجه.. زادتهم شمس الطور اسمرارا.. سمرة البشرة ليست خادعة.. تلك الملامح الجنوبية الباسمة.. أعرفها جيدا.. صلابة الخطوة.. والهامات المرفوعة.. حتى ولو حملت أطباق الطعام.. تلك الأيدى التى زرعت فى الجنوب.. فاخضر الوادى.. وعندما ضاق بزراعيه.. غادروه حتى حين إلى الشمال.. جاءوا يزرعون هنا أيضا.. فى أرض مصرية من أخصب أراضى سيناء.. أرض صعبة المراس رغم خصوبتها.. تحتاج الكثير من الحنان والرعاية والطبطبة.. حتى تؤتى خيرها.. كان النعناع البرى المختلط برائحة الليل هو الختام.. الذى تفرقنا بعده.. كل إلى غرفته.. قبل الانطلاق إلى دروب المدينة الصعبة!

3

حمام موسى.. الذى يبعد 3 كيلو مترات شمال المدينة.. كان أول الخطوات التى تحركنا صوبها.. كان عددنا ضخما على التحرك سويا.. وكان

انبهارنا واضحا لمرافقينا.. لاسيما عند مشاهدتنا لتدفق مياهه الكبريتية التى تقترب درجة حرارتها من 37 درجة مئوية.. بقوة من الأرض.. من خمسة عيون تصب في حمام على شكل حوض.. مغطى ببناء قبابى الشكل.. تعمل على شفاء الأمراض الروماتيزمية والجلدية.. قامت حوله مشروعات استثمارية نوعية.. حمامات سباحة.. وبعض الخيام للاستراحة.. دخلناه مجانا رغم تذكرته الرمزية.. خمسة جنيهات.. سكان الطور الأصلين من البدو مازالوا يمارسون عملهم فى الرعى من قبائل : الصوالحة، العليقات، مزينة، العوارمة، أولاد سعيد، القرارشة، الجبالية، الحويطات.. يعيش وسطهم مصريون من محافظات الوجه البحرى والجنوب.. فيضيفون روحا مختلفة للمكان.. وعلى الجانب المواجه لمياه خليج السويس.. يمتد شاطىء القمر.. برماله الناعمة.. وطبيعته الساحرة.. فى شكل لسان داخل الماء.. وعلى بعد 182 مترا من المدينة الساحرة.. كانت خطوتنا التالية.. «دير الطور».. واحد من أكبر أديرة المحافظة.. وجدت به خبيئة أثرية كاملة.. أثناء الحفريات التى تمت فى المنطقة منذ سنوات.. كان انبهارى بهذه المنطقة المليئة بالتفاصيل.. هو أول مشاعر الرحلة التى امتدت لستة أيام.. والتى كما قال أحد الزملاء الصحفيين: رحلة الأتوبيس! فقد أمضينا فى الأتوبيس.. ذهابا وعودة لكل الأماكن التى زرناها.. معظم مدة الرحلة!!

4

«التفاحة الذهبية».. هى الجائزة التى حصلت عليها من جمعية الكتاب السياحيين الدولية كأحسن مدينة سياحية على مستوى العالم.. كانت الرحلة منظمة بشكل جغرافى.. وكانت محطتنا التالية مدينة «شرم الشيخ».. التى

تأخذ أهميتها من موقعها عند رأس البحر الأحمر.. ومن هذه البقعة يتفرع إلى خليجى: السويس والعقبة .. وعلى مساحة نحو 424 كيلو مترا مربعا.. تنبسط المحميات الطبيعية فى رأس محمد المصنفة كأفضل منطقة غوص على مستوى العالم ونبق.. وفى عمق المياه.. عند مدخل خليج العقبة.. وفى مواجهة شرم الشيخ.. جزيرتا تيران وصنافير.. كل هذا الجمال الطبيعى.. وكل هذا الثراء البيئى فى مصر! عام 2002 كانت شرم الشيخ مدينة هادئة.. ترتفع درجة حرارتها عن أى مصيف آخر نعم.. لكنها تتفرد بمناظرها الخلابة وهدوئها.. لكن بعدها زحفت إليها جيوش المستثمرين.. فارتفعت الأبراج الخراسانية.. واختنقت بالزحام شأن باقى الشواطىء.. ففقدت أهم مميزاتها.... ساعد على هذا الزحف العمرانى المكثف.. الشبكة الحديثة والمتطورة من البنية التحتية.. المستشفيات.. والتليفونات.. والكهرباء.. والمياه.. وشبكة الطرق الحديثة تربط كل ضواحيها.. ومنظومة المواصلات البرية والبحرية والجوية.. وبالتالى زاد عدد السكان ليزيد على عشرة آلاف نسمة من المقيمين.. والذى قد يصل إلى 132 ألف نسمة عام 2017 بحسب التوقعات.. فى هذه المدينة ركبت «الجلاس بوت».. ورأيت عبر الأرضية الزجاجية للقارب.. مياه البحر الأحمر الصافية.. ومخلوقات الله المتنوعة فى قاعه.. مشهد مبهر لا يمكن نسيانه مهما مررت بمشاهد.. «لا تصدق صمت هذه الأرض ولا تدع وحشتها تخدعك».. جملة قفزت إلى ذهنى.. قالتها «أوجينى كلارك».. عالمة البحار الأمريكية.. عندما غطست للمرة الأولى فى هذه المنطقة.. هذه الصخور الصلبة القاسية الغليظة.. لا يمكن أن تكون هكذا.. من المؤكد أنها تخفى وراء هذه الغلظة والخشونة.. شيئا آخر أكثر رقة.. وإلا ما كانت تلك المخلوقات الهلامية..

والبحرية الضئيلة.. قد ائتنست بها.. لا بد أن هناك شيئا من الحنو.. تقدمه هذه الصخور.. لهذه المخلوقات الضعيفة فتحميها به!

5

فى المرة الأولى التى نزلت فيها شرم الشيخ.. لم أمارس الرياضة التى اشتهرت بها.. الغطس.. أو الغوص.. تلك الرياضة التى خصصت لها نوادى داخل الفنادق.. وخارجها.. تقدم فيها دروسا للمبتدئين.. مثل مدرسة غوص البحر الأحمر أكبر المؤسسات لتعليم رياضة الغوص فى الشرق الأوسط.. وكانت المرة الأولى التى أعلم بوجود مدارس متخصصة فى هذا الأمر فى مصر.. يعمل بها مدربون معتمدون دوليا.. من كبرى المنظمات.. ولكنى فعلتها.. قمت بالغوص.. فى الزيارة الثالثة.. فى مدينة دهب..

تلك المدينة التى كانت شهرتها من كونها ميناء بحريا.. استخدمه العرب الأنباط منـــذ القرن الثانى قبـــل الميلاد.. وحتى عام 106.. لتخزين بضاعتهم قبل نقلها الى ميناء السويس.. عبر أودية سيناء.. فتحكموا فى طرق التجارة بين الشرق والغرب عبر ميناء دهب.. والأنباط قبـائل عربية هـــاجرت من شبـــه الجزيـــرة العربيـــة الى بـــلاد الشـــام..فأسست مملكة عظيمة.. امتدت من شمال جزيرة العرب وبلاد الشـــام إلى مصـر.. وكانت عاصمتها مدينة البتراء بالأردن..

رأيت دهب للمرة الأولى.. بعد تسلمها عـــام 1982 من إسرائيل.. كان قد مضى على ذلك 20 عاما.. لكنها حملت بقايا مان كان وقتها.. سوقا تجاريا قديما.. و60 شاليها.. بسيطا عبارة عن نصف بنيان من الطوب.. مسقوف

بالخوص.. وبعضها بنى الشاليه كله من الخوص.. بعضها من غرفة واحدة ودورة مياه.. وبعضها من أكثر من غرفة.. وبطول ساحلها.. امتدت المقاهى والكافيتيريات الليلية.. التى كانت ديكوراتها كلها من الخيش والأقمشة البسيطة.. والمخدات الأرضية العريضة.. أما ديكوراتها.. فقد كانت من كل ما هو قديم.. زجاجات مياة بلاستيكية قديمة.. مملؤة بالحصى الملون.. أوانى نحاسية قديمة مزدانة بورود مجففة صغيرة.. أدوات منزلية من عصور قديمة.. وكل هذا كان جديدا على الذوق الفندقى المصرى وقتها.. لا سيما فى الأماكن الساحلية.. ولكنه صار سمة لمعظم هذه الأماكن فى السنوات التى تلت..

وفى دهب برمالها الذهبية اللون.. ومنها جاءت تسميتها.. كانت سرعة الرياح.. واحتضان الجبال لها من معظم الجوانب.. ملائمة لرياضة ركوب الأمواج والمراكب الشراعية.. وفى دهب.. فى المرة الثالثة فى أغسطس 2006 .. مارست رياضة الغوص.. شىء ممتع بدرجة تفوق التصور.. ليس فى رؤية الأعماق وما تضمه.. وتحتضنه.. وتحتويه.. فهذا رائع.. لكن الأكثر روعة.. إحساسك بأنك جزءًا من هذا الإبداع.. بالمعنى المادى للكلمة.. أنت تحت الماء.. إذن أنت جزء من تلك اللوحة التشكيلية المتحركة.. والتى قد تبدو للبعض حركة لا إرادية.. أو عشوائية غير منظمة.. وهى على العكس تماما.. فكل المخلوقات الصغيرة الدقيقة فى الأسفل.. تعلم جيدا فى أى اتجاه تتحرك.. ولماذا.. ومتى.. الوحيد الذى يتحرك لا إراديا.. هو أنت.. رغم أنك صرت جزء من كل هذا.. تهدهدك تيارات الماء فى الأسفل.. ذات اليمين وذات اليسار.. كيفما اتفق.. وتعبر بك تلك المخلوقات الدقيقة.. تتوقف لأقل من ثانية.. فتنظر فى عيونك.. ثم لا تلبث أن تكمل طريقها.. ولسان حالها يقول: ما هذا الأبلة الضخم الذى يقف بلا حراك؟! نعم هى تدرك أنك لا تتحرك..

لكنها لا تخافك.. يسمونها «مملكة البحار».. وهى بالفعل كذلك.. الصخور والشعاب والأسماك الملونة..

6

ثالثة أعمدة «المثلث الذهبى».. نويبع.. أما المثلث فهو: شرم الشيخ، دهب، ونويبع..عرفت بطابية نويبع بعد أن بنيت بها طابية صغيره عام 1893.. وكانت ذات سور وباب كبير وبئر مياه خاص بها.. ثم صارت فيما بعد مركزا للشرطة والهجانة لحفظ الأمن فى تلك المنطقة.. هى مدينة يغلب عليها الطابع الاقتصادى والتجارى.. فيها ميناء نويبع.. من أشهر الموانى البحرية المصرية.. عندما تجولنا حول الميناء فى الخارج.. كان عجبى يتضاعف.. كل هذا الإنجاز.. فى هذه البقعة البعيدة.. ونحن فى قلب القاهرة لا نعرف عنه شيئا! شعرت بالأسف لتقصيرنا جميعا.. من أنجز فلم يقدم إنجازه للشعب.. وهو حق له.. ومن جاء وشاهد – وهم كثر – من الإعلاميين.. وهم رسل الإنجازات.. وليس لأى منهم عذر..

مدينة نويبع.. فيها الميناء.. وفيها أيضا «بساطة».. وهى ببساطة شىء من الطبيعة وبالطبيعة.. هى أقرب لنويبع على الطريق من دهب لنويبع.. قرية سياحية مبنية بالخوص.. كل شاليهاتها على بعد 20 مترا من البحر.. تتمركز فى منتصفها تقريبا نصف بناية.. رباعية الشكل.. مسقوفة بالخوص.. وهى عبارة عن سوق مصغر جدا.. ومطعم مصغر جدا.. ليس بها عمال للخدمة.. أنت تخدم نفسك.. تشترى بنفسك ما يلزم طعامك من خضراوات ولحوم.. وكل شىء عليه سعره.. فتضعه فى صندوق الدفع.. ثم تقوم بطبخه بنفسك

فى نفس المكان المجهز بالبوتجازات الصغيرة.. ويمكنك الاحتفاظ بما تريد فى ثلاجة.. فى أكياس بلاستيكية مكتوب عليها اسمك.. ليس هناك تليفزيون ولا راديو ولا كاسيت.. هناك الحد الأدنى من الإضاءة الكهربية.. هناك البحر والرمال.. والطبيعة.. فعش أنت والطبيعة.. وهذا هو هدف «بساطة»..

نويبع التى تحولت ببطء إلى منطقة سياحية.. زراعية.. تجارية.. تحوى العديد من آبار المياه.. ومياه السيول.. والعيون القريبة.. تتبعها إداريا 8 تجمعات سكانية.. منها «طابا».. وتلك حكاية مبهجة!!

7

كنا جميعا مشحونين بشحنة هائلة من العواطف.. ونحن فى الطريق إلى «طابا».. تفاصيل مداولات التحكيم.. الفندق الوحيد - وقتها - الشهير.. تشبس الإسرائيليون بالأرض رافضين مغادرة المكان.. بعد صدور قرار المحكمين.. وهو مشهد تكرر كثيرا.. ونقلته شاشات الفضائيات المختلفة.. لمستوطنين يتشبسون بالأرض رافضين المغادرة.. وكل ما سمعناه عن عمليات النهب والهدم والتخريب التى جرت.. قبل مغادرتهم - مجبرين - أرض «طابا».. وصل الأتوبيس بعد ساعتين من التحرك من نويبع.. تفرقنا - بلا تعمد - فقد كان فى ذهن كل منا ما يفكر فيه تجاه «طابا».. قادتنى قدماى المنفذ.. وكانت المرة الأولى التى أجد نفسى فيها وجها لوجه أمام الإسرائيليين.. كانوا يعبرون ببطاقة هوية إسرائيلية! محملين بحقائب قماشية ضخمة.. يحملونها على ظهروهم.. يعبرون بلا تفتيش! هؤلاء يأتون دائما.. وبحسب أحد الضباط المصريين فى نقطة العبور.. حاملين كل ما يحتاجونه من طعام وشراب.. حتى

المياه والشيبسى.. لا ينفقون قرشا واحدا فى مصر.. سوى 10 دولارات فى اليوم للإقامة فى تلك المخيمات التى بنوها من قبل..

كانوا يتعاملون بصلف مع الجنود المصريين فى نقطة العبور.. يتحدثون العربية عندما يرغبون فى استفزاز المصريين الموجودين.. لم أتعرض لضغط نفسى.. مثلما حدث فى هذا اليوم.. فى أقل من ساعة.. وهى الفترة التى أمضيتها متجولة فى نقطة العبور.. جال فى خاطرى كل ما خبرته.. من أقارب أو معارف.. أو حتى عبر تواتر الحكايات.. والقراءات.. كل ما حدث على أرض سيناء.. كل الدماء التى سالت على هذه الأرض.. وكل السنوات التى أمضتها سيناء فى أيدى الإسرائيليين..

خرجت من النقطة الصغيرة النظيفة.. التى تحمل لافتات إرشادية.. عربية وعبرية وإنجليزية.. أنظر فى المطلق أمامى.. إلى كل هذه الصحراء.. كان قد مضى عشرون عاما على عودة سيناء.. وما زالت تحتاج الكثير..

8

الدولة البيزنطية القديمة.. أدركت جيدا قيمة هذه البقعة بالذات من سيناء.. فبنت حصنا فى القرن الثانى عشر الميلادى.. على خليج العقبة.. مشرفا على السعودية ومصر والأردن.. مالبث الصليبيون أن احتلوه عام 1116.. ثم أخذه صلاح الدين الأيوبى عام 1182.. وقام بتوسعته.. فصار جزيرة حصينة لحماية الطرق.. البرية والبحرية بين مصر والشام والحجاز.. سميت جزيرة فرعون.. أو حصن صلاح الدين.. وأدرك قيمتها العالم كله.. ورجال الإعمال الذين انتشروا.. بمشروعاتهم الاستثمارية فى هذه المنطقة..

كنت مازلت شاخصة فى المطلق.. أفكر فى تفاصيل الأيام الماضية.. فقد كانت طابا هى المحطة الأخيرة.. أفكر فى زميلى العزيز.. الذى لو رغب لكان أحد هؤلاء المستثمرين الكبار.. لكنه كان صحفيا.. وصحفيا فقط.. الراحل فتحى عبد العال.. لا ييأس من محاولة جذبنا لزيارة المحافظة الجميلة.. كان معتادا على الذهاب والعودة طوال الأسبوع.. فكان لا يشعر مثلنا بطول المسافة – 5 ساعات – كان يكتب عنها كما ينبغى لمصرى حقيقى.. يعلم جيدا قيمة هذه البقعة أن يكتب.. أفتقد كتاباته عن جنوب سيناء.. وروحه التى تطوف بأرض القمر.. كنت ما زلت أنظر إلى عمق البحر.. وأنا أنطق بجملتى تلك بلا وعى: « يا أستاذ فتحى.. لروحك منى السلام»!

الخامسة

العباسية..

من الجامعة لمستشفى المجانين!

أربع سنوات أمضيتها فى منطقة العباسية.. أذرعها جيئة وذهابا.. يوميا.. نهارا وليلا وطوال الوقت.. كان الأمر يشبه هستيريا «العباسية».. السير فى شوارع العباسية المحيطة بجامعة عين شمس.. طقس يومى ثابت رحلة العودة اليومية من الجامعة إلى حدائق القبة.. والمرور بشارع الخليفة المأمون.. ثم المدينة الجامعية.. وهيئة الأرصاد الجوية.. ومقر وزارة الدفاع.. السير دائما على يسار الشارع.. ثم العبور يسارا أيضا.. إلى «مزلقان» القطار.. قبل أن يتم إنشاء مترو الأنفاق.. صحبة الجامعة من كليات الآداب والحقوق والتجارة.. ممر «جيمى» الشهير بكلية الآداب.. ومظاهرات الطلبة داخل سور الجامعة.. قصر الزعفران.. وندوات حزب التجمع بكلية الهندسة.. مستشفى الأمراض النفسية.. والتى كانت دائما تمثل مشاهدات من الخارج.. مستشفى الإيطالى..

وهدية «السوريلات».. صورة بحجم عقلة الإصبع الواحد للسيدة العذراء.. مستشفى درا الشفاء.. وأول جراحة فى العام الأول الجامعى.. صخب البشر.. والمعنى الطازج للحياة فى مرحلة غضة.. تلك هى العباسية كما عشتها!

1

عندما جلست إلى جوار والدى.. مطلع عام 1984.. نملأ المربعات الخالية فى استمارة مكتب التنسيق لدخول الجامعة.. لم يكن ما كتبته هو ما خططت له! فقد كنت قد اجتزت اختبار القبول لكلية الفنون الجميلة.. وهو ما عملت عليه طوال السنوات السابقة.. ولكن عندما وضعت الأوراق أمامى.. كتبت كلية الآداب! فالقدر يكتب بأيدينا.. ما هو مدون لنا منذ الميلاد.. وبدأت الرحلة اليومية المقدسة إلى جامعة عين شمس.. وبدأت العلاقة العميقة مع حى العباسية.. التابع لقسم الوايلى.. بمحافظة القاهرة.. وهو نفسه ما كان يسمى «صحراء الريدانية».. التى حملت اسمها الحرب الشهيرة بين الأمير المملوكى «طومان باى» والسلطان العثمانى «سليم الأول».. وانتهت بهزيمة الأول وإعدامه على باب «زويلة».. بمنطقة الغورية.. تلك المنطقة.. وهو أمر مثير للدهشة بالنسبة لكثيرين.. ظلت صحراء حتى أنشأ الخديوى «عباس» أول بناية بها.. والمدهش أيضا أنها كانت مستشفى للأمراض النفسية!! ثم توالى بعدها إقامة المنازل..

الطوبة الأولى للبناء فى منطقة العباسية.. مستشفى الأمراض النفسية والعصبية.. الذى يرجع عمره إلى القرن التاسع عشر.. والجولات المبكرة على الأقدام حول سور المستشفى.. الذى كان فى بداية الثمانينيات من القرن

الماضى.. مبنى مرعب.. أسوار أسمنتية عالية تحجب تماما ما وراءها.. وسور حديدى صدىء مرتفع.. تصدمك الأشجار المهملة.. إذا ما حاولت التطلع من خلاله.. أشجار متغولة.. تتشابك أفرعها بعضها مع بعض.. فتجلب الدهشة لنفسك.. إذا ما فكرت.. كيف يسير البشر بالداخل.. عبر الطرقات المتربة.. والأغصان المتدلية إلى الأرض.. ووسط أوراق الشجر الصفراء المتساقطة بعد الخريف.. الذى يأتى بعده خريف.. ثم خريف.. دون أى اكتراث بإزاحة آثار أى خريف.. والتهيؤ لاستقبال الربيع.. وفيما يبدو لك.. أنه مكان لا يأتيه ربيع.. هذا المكان المرعب.. وفى كل المرات التى استرقت فيها عيوننا النظر إلى الداخل.. عبر البوابة الصدئة التى لا لون لها.. لم نسمع فيها صوت بشر.. ولا خيل لنا طيف كائن حى يعيش بالداخل.. وكأنما حرص المسئولون عن المستشفى على إخفاء كل ما ومن بالداخل.. وتلك كانت ثقافة هذا العصر تجاه هؤلاء المرضى..

2

هذه الثقافة تغيرت بعد أكثر من ستة عقود من عمر الزمن.. بإقرار تعديلات قانونية جديدة على المواد المنظمة لعلاج الأمراض النفسية والعصبية.. المادة «سيئة السمعة».. 141 والتى تعود إلى عام 1944.. وتحدد التعامل مع المرضى النفسيين.. الذى ينحصر فى إيداع المرضى فى مستشفى.. فيما يشبه التخلص منهم.. هذا المفهوم تغير الآن.. وصار واجبا إدماجهم داخل مجتمعاتهم.. بل وإنشاء منازل خاصة بإقامتهم بعد خروجهم من المستشفى.. وإتاحة الفرصة لهم أنفسهم لإبداء الرأى فى العلاج.. بعد فترة زمنية محددة..

تلك التعديلات الجديدة.. عملت كثير من منظمات المجتمع المدنى المصرية للوصول إليها..

عندما كانت تنتابنا القشعريرة.. عبورا بالبوابة الحديدية الصدئة.. منذ أكثر من 20 عاما.. لم يكن يدر بخلد أى منا.. أنه سيأتى يوم.. ترى فيه الشمس البشر داخل البناية العتيقة.. ويتغير لون الأشجار القاتمة.. إلى لونها الأخضر الطبيعى.. ويشارك المرضى أنفسهم فى دورى لكرة القدم خاص بالمستشفى.. يقوم بالتعليق على مبارياته أحد الأطباء النفسيين بالمستشفى!

وعندما أفكر فيما كان يدور داخل أذهاننا وقتها.. ونحن نعبر مرارا سور المستشفى.. ندور حوله ونتطلع إلى داخله.. أصدقكم القول أننى أحار فى تفسير ذلك.. لكنى أجده فى السياق تماما.. فصحبة الجامعة الحية.. كانت جزءًا من حالة مصر التى كانت تغلى وقتها.. غليان الأحداث والأفكار والشباب.. مصر تلك الشابة الحية الجميلة.. كان بها هؤلاء الجبابرة الذين صار كل منهم الآن مرموقا فى مكانه..

3

جامعة عين شمس.. «جامعة إبراهيم باشا».. أقدم ثالث جامعة مصرية.. فؤاد الأول «القاهرة» وفاروق الأول «الإسكندرية» تأسست فى يوليو 1950.. والتى تغيرت أسماؤها جميعا.. بعد ثورة 23 يوليو 1952.. لتصبح ذات جذور ومعان مصرية.. فصارت جامعة «إبراهيم باشا».. جامعة «هليوبوليس».. أو «أون»..عام 1954.. و «أون» هى أقدم جامعة فى التاريخ.. يعود تاريخها لأكثر من 5 آلاف عام.. ذاعت شهرتها فى تدريس علوم.. الفلك.. والطب..

والهندسة.. كبير معلميها الكاهن الأكبر ووزير الدولة «أمحوتب».. الذى صمم أول تركيب للحجارة 2700 سنة قبل الميلاد.. أما شعار جامعة عين شمس.. المسلة والصقران.. فيمثلان بيت الحياة فى مدينة «أون» فى المسلة.. وبيت الإله المصرى فى الصقرين..

لم نكن نهتم بتفاصيل من هذا النوع وقتها.. كنا ندرك المعنى المصرى للشعار.. دون وعى بما يرمز له.. ولا حتى كنا نهتم بتاريخ قصر الزعفران.. القصر العتيق داخل الجامعة.. ويشغله هيكل المقر الإدارى لها.. بحدائقه المترامية.. وأشجاره القديمة المرتفعة المنمقة.. لم يكن يمثل لنا قيمة تاريخية أو جمالية.. بقدر ما مثل بقعة لممارسة رياضة المشى حوله مرات كثيرة على مدار اليوم.. جماعات أو ثنائيات.. وكان اسمه المتعارف عليه.. قصر العشاق! فهو مستقر كل اثنين من الزملاء.. شاب وفتاة.. تربطهما قصة حب خضراء..

قصر الزعفران.. بنى عام 1925 فترة حكم الخديوى إسماعيل.. سمى باسم بمزارع الزعفران الوافرة التى كانت - ومازالت - تحيطه.. واستخدمته وزارة الخارجية المصرية وقتها.. كدار ضيافة لكبار الزوار.. وهو المكان الذى كان شاهدا بجدرانه وأثاثه.. على توقيع معاهدة 1936 بين مصر وبريطانيا.. وتحول لمقر لإدارة الجامعة فى 1952.. قصر الزعفران بتلك الهالة التى تحيطه من الرومانسية والهدوء وجمال الطبيعة.. لم يكن المفردة الوحيدة التى تجمعنى بصحبة الجامعة.. فصحبة الغليان تلك.. لم يكن ليرضيها الهدوء المستمر.. كانت لها داخل الجامعة مفردات أخرى!

4

رفاق المرحلة.. محمد عثمان الذى صار الآن محاميا مرموقا.... ومثله ياسر فتحى.. وعماد نبوى الذى صار مسئولا عن إحدى منظمات حقوق الإنسان بالإسكندرية.. حسن هيكل المحاسب القانونى ورمضان حسن المدرس بإحدى المدارس الثانوية.. يسرى حسان رئيس القسم الثقافى بصحيفة المساء.. محمد عثمان وياسر وعماد.. صحبة جمعية النديم بكلية الحقوق.. أول خبرتى فى الجامعة.. شهدت جدرانها أول قصة قصيرة.. وأول ندوة أشارك فى تنظيمها.. وأول مظاهرة سرت فيها صامتة.. من كلية الحقوق.. حتى باب الجامعة الموصد أمامنا.. مرورا بكلية آداب.. أول هتاف هزنى من الأعماق «يا حرية.. فينك فينك.. أمن الجامعة بينى وبينك».. تلك الصحبة التى أخذتنى إلى عالم أكثر اتساعا من مدرجات الكلية.. والمحاضرات المملة.. ورتابة التجول.. والجلوس فى ممر «جيمى».. الممر الذى يربط كلية الآداب بكافيتريا الكلية.. والذى أخذ اسمه من صاحب كشك صغير داخله.. كان كفيفا «جمال».. صنع لنفسه حالة داخل الكلية.. وصار مقصدا للشباب من الكليات الأخرى.. بمقاعده الرخامية النظيفة.. وفتيات الكلية الحسان.. اللائى كن يذهبن ويجئن فى ممره على مدار اليوم.. أخذتنى تلك الصحبة.. لندوات حزب التجمع المستمرة.. بكل ألوانها.. فى كلية الهندسة.. عروض الأفلام السينمائية المختلفة.. التى تتوافق مع فكر «التجمعيين».. ياسر فتحى.. ابن لمناضل عمالى راحل.. ومحام بارع.. وإنسان على درجة عالية من الرقى.. كان ناصريا.. وأحد المؤسسين للحزب الناصرى فى بداياته.. يتكلم فيشعرك أنك أمام الزعيم الراحل.. يتحرك بين البشر.. فيضفى من روحه المتحمسة

الهادئة عليهم.. صاحب «كاريزما» أهلته فيما بعد.. للمكانة التى احتلها.. أما محمد عثمان.. ذاك الباسم المتفاعل مع الآخرين.. فكان عضوا بحزب العمل.. قبل أن يبدل ثوبه العتيق.. بجلباب ولحية وأشياء أخرى! عثمان كان دينامو.. سريع الحركة.. سريع التفكير.. سريع الترتيب.. قادر على صنع جمهرة كافية.. عندما يحين العمل.. والعمل وقتها كان تظاهرة جديدة.. تخرج عن بنايات الجارتين.. الآداب والحقوق.. لتضم لها الرفاق فى العلوم والتجارة.. وما بين مبنيى الآداب والحقوق.. فى الحديقة التى تمثل المياه الإقليمية المشتركة بين الجارتين.. كانت أول مجلات أسرة «الرسالة».. أول أسرة لها طابع سياسى تنشأ فى كلية الآداب.. بدأناها معا رمضان حسن وأنا وآخرون.. وكان مقرنا ومستقرنا.. السلم الجانبى لكلية الأداب.. والمطل على الجارة الحقوق.. أرواحنا التى ترددت فى كل تلك الردهات والحدائق والمبانى.. مازالت هناك.. عندما أذهب للجامعة لسبب أو آخر.. ورغم كل التغيير الذى حدث فيها.. إلا أنى أحس بصماتنا فى كل ركن وزاوية.. وتلك هى العلاقة النقية بين المكان والبشر..

5

النقاء.. تلك الكلمة ذات المعنى المستتر الرائع.. والتى كانت بمعناها المباشر.. سببا فى اختيار العباسية.. فى القرن الماضى لإقامة العديد من المستشفيات.. الدمرداش.. اليونانى.. الفرنساوى الذى صار مستشفى للطيران فيما بعد.. مستشفيات جامعة عين شمس.. حميات العباسية.. مستشفى الزهراء الجامعى التابع لجامعة الازهر.. دار الشفاء.. و المستشفى الإيطالى..

تلك التى حملت.. فى نهاية الستينيات من القرن الماضى.. أول معالم وتفاصيل كلمة مستشفى.. فى ذاكرة طفلة.. مشاهد متناثرة.. غير متصلة.. لكنها مرتبطة.. المشهد الأول أمسك فيه بيد أمى.. وهى تصعد درجات سلم رخامى عريض.. نظيف.. يفضى إلى بهو بناية بيضاء.. كنت أراه وقتها شديد الاتساع.. يليه المشهد الثانى.. جالسة مع أمى وأبى.. فى بلكونة عريضة متسعة بمساحة غرفة.. ملحقة بغرفة بيضاء اللون شديدة النظافة.. أبى يأكل برتقالة.. ويتحدث إلى آخر فى بلكونة مواجهة.. ملحقة أيضا بغرفة بيضاء شديدة النظافة.. وهو الآخر يأكل برتقالة.. يليه الثالث.. امرأة ممتلئة الجسد.. بيضاء البشرة.. ترتدى لباسا طويلا رمادى اللون.. وتغطى رأسها بغطاء رمادى أيضا.. فى المرة الأولى.. اقتربت منى.. وأعطتنى شيئا صغيرا مستديرا.. برواز صورة فى حجم عقلة الإصبع.. عليه صورة لامرأة جميلة باسمة.. تلك المرأة الممتلئة كان اسمها «سوريلا».. ظللت أذهب مع أمى لزيارة أبى عدة أيام.. ثم خرج أبى ليعيش بيننا كما كان.. ولم أكن وقتها أعى من كل هذا شيئا.. لكن ظلت تلك المشاهد.. عالقة بالذاكرة.. بعدها عرفت أن أبى كان مريضا.. ظل بمستشفى الإيطالى عدة أيام.. وتلك البناية شديدة النظافة.. كان يعمل بها كممرضات.. راهبات إيطاليات.. وأن تلك المرأة التى أعطتنى الصورة الصغيرة.. لم يكن اسمها «سوريللا».. كان عملها.. «سوريللا» أخت أو راهبة بالإيطالية.. أما الصورة التى احتفظت بها سنوات طويلة.. أرتديها أحيانا.. وأضعها بين أشيائى الخاصة أحيانا.. كانت صورة يتم تعليقها بسلسلة أو ميدالية مفاتيح.. للسيدة العذراء «مريم».. فقدت هذه الصورة مؤخرا أثناء الانتقال من منزل إلى آخر.. ومازلت حزينة لفقدها.. فقد أحسست بوجهها وأنا طفلة.. وأحسست بروحها فيما بعد..

6

كان اسمها منذ أسست عام 1903 «أمبرتوا».. بنيت على مساحة 27 ألف مترا مربعا.. تضم الآن 250 سريرا.. ويعمل بها 500 طبيب.. وتضم قسما متخصصا لأمراض الشيخوخة.. أسسها الجراح الإيطالى «أمبيدوكلى جاليو «.. الذى مضت 140 عاما على ميلاده منذ وقت قريبا.. تتبع المؤسسة الإيطالية للأعمال الخيرية.. وكان هدفها رعاية 30 ألف إيطالى.. أفراد الجالية فى مصر وقتها.. تلك هى المستشفى الإيطالى.. أول تجاربى – التى تعددت فيما بعد – مع هذا العالم.. والتى لم تكن آخرها.. مستشفى دار الشفاء.. التى تحولت لمدة 5 أيام فى عام 1985.. إلى زاوية أخرى تضاف لزوايا جامعة عين شمس.. التى جمعت صحبة الجامعة تلك!

دخلت المستشفى لإجراء جراحة لاستئصال الزائدة الدودية.. ولحظى كانت كل الغرف شاغرة.. وهو أمر لا يحدث كثيرا.. أو هكذا قيل لنا وقتها.. فخرجت من غرفة العمليات بعد الجراحة.. إلى غرفة الرعاية المركزة.. وهى غرفة يعرف تفاصيلها الذين خبروها.. وللذين لم يمروا بها.. فهى غرفة كبيرة تستوعب من 6 إلى 10 أسرة.. يحيط كل منها ستارة حول السرير كله.. بحيث تفصله وصاحبه عن العالم.. بمجرد جذبها.. أفاقنى من أثر المخدر ألم شديد غير محتمل فى جانبى الأيمن.. وللحظة لم أع إذا كنت قد أجريت الجراحة بالفعل.. أم أن هذه هى آلام التهاب الزائدة الدودية! كان المكان حولى غارقا فى ظلام دامس.. وصمت عميق إلا من تأوهات رتيبة.. ضعيفة.. كأنها آتية من بئر سحيق.. لم أدر هل الوقت نهار أم ليل.. ولم أدر.. بعد أن تمالكت وعيى

نوعا.. أين أنا بالضبط.. أدركت أنى بالمستشفى.. بعد أن تحسست مكان الألم.. فتعثرت أصابعى بكتلة من البلاستر.. تستر تحتها كمية لا بأس بها من القطن.. كما خمنت.. لا أدرى كيف سقط جفنى العلوى على شقيقه.. رغم كل هذا الألم.. لكنى استيقظت فى الصباح على صوت والدى.. محتدا خارج الغرفة.. إتكأت على نفسى.. وقمت من السرير.. وفى المسافة بين السرير وباب الغرفة.. فهمت أن الممرضة كانت تمنعه من دخول الغرفة.. فتحت الباب.. ووقفت قبالته.. وكان آخر ما حدث حينها.. أن التقت عينيه الباسمة الجميلة الخضراء.. التى كنت أحبها بعينيى قائلا: حمد الله على السلامة.. وسقطت مغشيا على!

وعندما فتحتها.. كنت فى غرفة أخرى وحولى الجميع.. أبى وأمى.. وأصدقاء أبى.. وصحبة الجامعة.. وتحولت الغرفة على مدار الأيام التى أمضيتها بالمستشفى.. إلى ركن من الأركان التى كانت تضمنا فى الجامعة.. نفس الحوارات.. ونفس الضجيج.. ونفس الصخب.. وكان الضحك هذه المرة مؤلما.. تحت وطأة الشق الصغير بجانبى الأيمن!

7

الغرفة كانت تطل على امتداد شارع رمسيس.. بكل ضجيجه.. وبشره.. وأمكنته.. وكان فى مواجهتها الكاتدرائية المرقسية الشهيرة.. عندما صحوت على صوت أجراسها صباح «أحد» من الأيام.. وكان القداس فى هذه الأيام يقام يوم الأحد فقط.. فى العاشرة صباحا.. وأحيانا يضاف قداس فى السادسة مساء فى بعض الكنائس.. بعضها صار القداس يقام.. يومى الأحد والجمعة!

خطرت ببالى تلك الصورة الصغيرة للسيدة العذراء.. التى أعطتنى إياها «سوريللا» المستشفى الإيطالى.. هى ثانى أكبر كاتدرائية فى العالم من حيث المساحة.. بنيت فى ستينيات القرن الماضى.. تبرع الرئيس الراحل جمال عبد الناصر.. بمبلغ 15 ألف جنيها لبنائها.. وحضر افتتاحها الإمبراطور الراحل أيضا.. «هيلا سلاسى».. إمبراطور الحبشة.. التى صارت جمهورية إثيوبيا فيما بعد.. وكان بابا الإسكندرية.. وبطريرك الكرازة المرقسية حينها.. الأنبا «كيرلس السادس».. الذى كانت صورته حتى نهاية التسعينيات من القرن الماضى.. معلقة فى صدر محل عم «مينا» الرفا فى حدائق القبة.. لم يرفع الصورة بعدها.. لكنه مات.. فأغلق المحل ولم أعد أراها! بعدها بسنوات.. وعلى مقربة من الكاتدرائية.. بنى مسجد النور.. الذى أقامه الشيخ «حافظ سلامة».. قائد المقاومة الشعبية فى مدينة السويس.. فترة حرب 1973..

ومن نافذة تلك الغرفة.. كنت أرى عن بعد أبنية كلية الآداب.. فيقفز إلى ذهنى رفيق السنوات الأربعة.. عم «يوسف» ومقره عند مدرج آداب سفلى.. هكذا كان يسمى لأنه مدرج تهبط إليه بعشر درجات.. ومكان عم «يوسف» الذى اختاره ليقدم الشاى والقهوة وكل شىء.. كان مقرنا للتجمع.. عندما تتفرق بنا السبل فى نهار الجامعة الطويل.. وكان هو يعرف أين يجد أى منا.. كان سهلا عندما نفقد السبيل لأحدنا.. أن نجد الإجابة عند عم «يوسف»! فى هذه البناية الطيبة.. تنقلت بين أقسام علم النفس.. ثم اللغة العبرية.. ثم استقر بى المقام فى قسم اللغة الفارسية.. ولكن ظلت محاضرات د.أحمد حماد.. تاريخ العبرانيين.. هى الأثيرة لدى طوال العام الأول.. ومن نفس النافذة.. فى غرفتى بمستشفى دار الشفاء.. كنت أطل على منطقة عرب المحمدى.. التى كانت سوقا ثم تحولت فيما بعد لمكتبة مهمة..

8

عندما تأخذنى قدماى من وقت لآخر لهذه المنطقة.. أشعر أرواح كل الذين عبروها.. وأستحضر أماكنها القديمة.. حتى لو تبدلت.. فالمناطق التى عاش فيها الرئيس الراحل جمال عبد الناصر.. والفريق عبد المنعم رياض.. وأديب نوبل نجيب محفوظ.. وغيرهم.. مازالت تحمل رائحتهم.. فتلك رائحة لا تزول.. بقرارات إزالة.. ولا تتغير ببنايات جديدة تنبت محل القديمة.. تلك روائح تبقى لأجيال كثيرة قادمة.

السادسة

«بنى سويف..
ت.. ن.. م.. ى.. ة.. مستدامة!»

فى دنيا الله.. هناك بشر يرسمون طريقا فى الحياة.. لهم ولأوطانهم وللآخرين.. فتظل بصمتهم باقية.. ومارسموه فاعلا فى حياة غيرهم.. يخلصون فتخلص لهم ذاكرة الأيام.. يحفرون فى الصخر.. فيسجل لهم التاريخ أسطرا حفروها.. يبذرون فى الأرض بذورا للخير.. فتحصد نتاجها أجيال بعد أجيال.. من هؤلاء د.عدلى حسنين.. الخبير فى التنمية المستدامة.. ذاك المصطلح الذى أصبح عابرا للقارات والثقافات والسياسات أيضا.. شارك فى حرب أكتوبر 73 تحت قيادة اللواء محمد على فهمى قائد قوات الدفاع الجوى وقتها.. كراصد لحركة الطيران بحسب تخصصه فى الجغرافيا.. تم تكريمه بعد إصابته.. كضابط فى إحدى قوات الدفاع الجوى فى البحر الأحمر.. أسر أبوه

وأعمامه مع الرئيس الراحل جمال عبد الناصر فى معركة الفالوجا.. خاضت تلك الأسرة حروب السويس 56، واليمن 62، وشاركت فى تقديم العون للمناضلين الجزائريين ضد الاحتلال الفرنسى.. عرفته منذ ما يقرب من عامين.. لكن فى داخلى حرص متعمد على وصل خيوط إنسانية معه.. فهو مثل كثير من البشر فى بلادى.. يملكون روحا تجذب إليها أرواح الآخرين..

1

عندما كانت مصر تمر بأعوامها الصعبة.. أعوام حرب الاستنزاف.. كان ينهى دراسته فى العلوم والهندسة الزراعية عام 1969.. من كلية الزراعة جامعة القاهرة.. غادر صوب جامعة باريس ليحصل منها على دبلوم الدراسات المتخصصة فى التخطيط الشامل وإدارة الثروات الطبيعية.. ثم ماجستير فى التنمية المستدامة 1977.. وهو نفس العام الذى فجر الرئيس الراحل.. محمد أنو السادات.. قنبلته بالذهاب إلى تل أبيب طلبا للسلام.. السلام.. المترادف المنطقى لعملية التنمية المستدامة.. التى حصل فيها د.عدلى على درجته فى الدكتوراه.. متخصصا فى الجغرافيا الاقتصادية والاجتماعية للدول المتقدمة.. من جامعة باريس والسوربون عام 1980.. ومركزا على مشاكل ومبادىء التنمية المستدامة فى الصحارى.. ثم مستشار للأمم المتحدة والبنك الدولى وهيئات أمريكية وإفريقية وأوروبية متعددة فى هذا المجال..

ولأنه ابن محافظة قنا.. ولأنه ربيب الوادى فى جنوبه الدافىء.. فقد كانت رسالته عن كيفية خروج مصر من هذا الوادى الضيق الذى تعيش فيه منذ آلاف السنين.. وادى النيل.. وهو فى هذا يملك رؤية مهمة جدا.. رؤية تربط بين مشروع توشكا ومنخفض القطارة والواحات والوادى الجديد.. بحيث تصبح جميعها واديا موازيا لوادى النيل.. رؤية لم يسبقه فيها أحد.. فكانت رسالة الدكتوراه الأولى من خارج مصر عن التنمية الصحراوية فى مصر.. وأول رسالة على الإطلاق عن توشكا.. قبل أن يضع بعض المستثمرين العرب أيديهم على أرضها.. ودون أن تحدث تنمية حقيقية!

2

التقيته لأول مرة فى إحدى الكافيتيريات.. فى «مول» شهير بالمعادى.. هذه الكافيتيريا امتدت أفرعها فى مصر بشكل مذهل.. أراد صاحبها الأمريكى أن يعمل فى منطقة الشرق الأوسط.. فاختار مصر.. ولكن المعوقات البيروقراطية.. كانت أكبر من قدرة رأس المال الراغب فى الدوران بسرعة على الاحتمال.. فالتقط الصفقة رجل أعمال خليجى.. ودارت عجلة المال بسرعة.. لتعود تلك السلسلة وتفتتح أفرعها المتعددة فى مصر عبر وسيط خليجى! وتلك هى المسألة.. أو المشكلة.. الفكر بعيد المدى.. أو المستديم.. أو كما صكت المنظمات الدولية «المستدام».. انعدام هذا الفكر هو الذى خنق

محافظات الجنوب.. صعيد مصر.. فحرمها من الامتداد على شواطىء البحر الأحمر.. وخلق «الحادث السيء» - بحسب تعبير د.عدلى - محافظة البحر الأحمر.. تلك المحافظة التى أصبح ممنوعا على الصعايدة الامتداد فيها.. رؤية د.عدلى كانت فى أن تصبح لكل محافظة جنوبية تكامل صحراوى، معدنى، سياحى، ثروة مائية وسمكية.. وهو أمر فى فكر التنمية المستدامة.. كان سيحد من عمليات الهجرة إلى الشمال..

فى هذه الفترة.. أذكر.. ويذكر كثيرون.. أحاديث الرئيس السادات عن الخروج من الوادى.. وتنمية الصحراء.. وخروج المصالح الحكومية والوزارات من العاصمة إلى المدن المحيطة.. مدن 15 مايو والعامرية الجديدة أصبحت مأساة.. مدن 6 أكتوبر والعاشر من رمضان والعبور بدأت متتالية دون تخطيط.. أو تحديد جدول زمنى ومستويات للتعمير.. يتم تجاوز القانون بعقد مصالحات مع المخالفين.. الدولة تتاجر فى أراضى الدولة! تعرض قطع الأرض للبيع فتخطفها الشركات من ناحية والأفراد من ناحية أخرى.. ثم يتم توزيعها عن طريق أعضاء مجلس الشعب.. هل الأمر كله كان خطأ من الرئيس السادات؟!

3

محطتى الثانية معه.. كانت فى الرابع من أكتوبر عام 2008.. كان موعدنا.. وكانت وجهتنا محافظة بنى سويف.. حيث مركزه.. التطبيق العملى لفكره هذا.. فى سيارته ومعه إحدى المتعاونات معه.. قطعنا المسافة من القاهرة إلى المركز فى ساعتين إلا عشر دقائق.. كما تعهد الدكتور.. وطوال الطريق يتحدث عن مشروعه.. حديثا تختلط فيه العربية بالإنجليزية.. فالمتعاونة الشابة نصف مصرية.. نصف أمريكية.. تتحدث قليلا من العربية.. والحديث يتداخل طوال الطريق بتلك الصور التى تمرق عبر نافذة السيارة.. كل تلك الأبراج الأسمنتية المتلاصقة بحى المعادى على الطريق.. بألوانها المتناقضة.. مفتقرة إلى أى تصميم معمارى أو ذوق.. مختلطقة بأدخنة وأتربة مصانع الأسمنت بحلوان.. جزء منها يتصاعد فيحجب سماء كانت صافية.. وجزء آخر يدخل إلى صدور العاملين بتلك المصانع.. ولا عزاء لبضعة جنيهات يتقاضونها كبدل صحة.. أو أكواب لبن عديم الفائدة.. لا أدرى إن كان يتم توزيعها للآن!

ثم عبورا ببناية خارجة عن السياق.. بأسوارها العالية.. وطلائها الحديث.. «سجن طرة».. ومرورا بتلك اللوحة السريالية.. مدينة 15 مايو ترحب بكم.. أتوبيسات هيئة النقل العام المتهالكة.. منتهى العشوائية.. كان آخر ما اختزلته العيون.. قبل أن نشرع فى رؤية رمال الصحراء الصفراء..

التى تدعوك غصبا إلى التأمل.. فى كل شىء. وأى شىء! «طريق الكريمات» هو سبيلنا للهدف.. وفى مدخل محافظة بنى سويف.. حيث مقر مركز البحر المتوسط لبرامج التنمية المستدامة.. الذى يرأسه الدكتور.. عاد يتحدث ثانية عن فكر التنمية المستدامة.. أن يستمتع الجيل الحالى بكل ما حبانا الله به من ثروات على الأرض أو فى باطنها.. شريطة أن يتركها للأجيال القادمة كما هى أو يضيف إليها..

لدينا 4 مليون فدان لابد من الحفاظ عليهم.. جعلهم 5 بدلا من 3.. وهذا هو سر أن مائدة طعام المصريين.. 75 ٪ من مكوناتها مستورد.. العدس والفول والخبز وكل شىء.. نخسر بالبناء على أرض زراعية ثلاث مرات.. نخسر الأرض الزراعية نفسها.. وننفق أموالا طائلة على الصرف الصحى لأنها أرض زراعية.. ثم ننفق أمولا طائلة أخرى على الصحة نتيجة مشاكل تلك الأرض..

4

بعد ساعتين وعشر دقائق بالضبط.. كان يلوح فى الأفق.. فى قلب الصحراء.. سور أبيض طويل ممتد.. توقفت السيارة أمام بوابته الحديدية.. التى فتحها حارس فى جلبابه الأزرق.. وغطاء رأسه على الطريقة الصعيدية.. كان الحارس من العرب.. فهذا المركز كما قال لى د.عدلى.. يحرسه عرب المنطقة.. أما فى الداخل فقد كان المشهد شديد الاختلاف عن الخارج.. مساحات من

الخضرة تجتذب العينين.. أينما توجهت.. أبنية بيضاء منتشرة على مرمى البصر.. أبنية من دور واحد ذات قباب.. وفى ملتقى طريق باب الدخول.. تتمركز بحيرة صناعية فيما يشبه مركز النشاط اليومى.. فتلتف حولها قاعات واسعة ذات بوابات مستديرة.. مفتوحة طوال الوقت.. تضم المطعم والكافيتيريا.. تضم البحيرة أسماكا صغيرة وكبيرة.. وتحيطها أشجار الزينة.. التى تحتضن جذورها نبات النعناع.. الذى عشنا عليه مع الشاى لمدة أسبوع.. المكان برمته لا يوحى بأنه معسكر للشباب.. من طلبة الإعدادى والثانوى.. هو أقرب لنموذج القرى السياحية.. وهنا يجرى إعداد قادة المستقبل.. وبث روح البناء والمواطنة الصحيحة فى نفوسهم.. ليكون نواة لمراكز فى كل محافظات مصر مستقبلا.. حقل تجارب على ضفاف النيل.. فى الصحراء الشرقية لمحافظة مميزة طبيعيا وتاريخيا وسكانيا.. وبمناهج عمل خارج الجدران..

عشت مع 50 شابا وشابة من ألمانيا وإيطاليا وأمريكا والهند.. ودول أخرى عديدة.. من مدرسة زيورخ الدولية فى سويسرا.. 5 أيام.. ثم انضم إلينا فى اليوم الأخير شباب وشابات من مدارس بنى سويف.. شباب يطغى شغفه بالمعرفة عن مصر.. أوضاعها الاقتصادية والاجتماعية ونظامها السياسى.. على كل أفكار مسبقة.. ود.عدلى يحاول إشباع هذا الشغف بالحديث فى كل ما يرغبون معرفته.. مغلفا هذا بموضوعه المحبب.. التنمية المستدامة.. عاقدا مقارنات بين مصر وغيرها من الدول.. لا سيما الولايات المتحدة.. وفى 5

مجموعات.. بصحبة 5 مشرفين طوال برنامج المعسكر.. كانت الجولات فى أرجاء المعسكر.. المشتل الذى يضم أنوعا مختلفة من النباتات.. المجلوبة من بقاع شتى من العالم.. توقفوا أمام شجرة سريعة النمو.. جلبها من القدس.. ثم قام بإهدائها للكثير من المصانع والمساجد فى الجوار.. أو فى المحافظة.. ومشروع مركز الكومبيوتر الجارى إنشاؤه.. لطلبة مدارس بنى سويف.. ومكان تربية الخيول والأغنام والجمال والطيور.. مزارع البرسيم لإطعام الحيوانات.. دون كيماويات.. فأسمدة الحيوانات كافية.. وعلى مساحة 100 فدان.. سجل المركز رقم صفر فى القمامة والمخلفات.. يتم فرزها ليتولاها أحد مصانع الصابون والمنظفات فى بنى سويف.. تعيد تعبئة الزجاجات لبيعها للأهالى.. وفى المقابل فهى تمد المركز بما يحتاجه من منظفات خاصة بدورات المياه والأرضيات.. الشباب قاموا بأنفسهم بكبس المخلفات المعدنية.. بالآلة الخاصة بذلك فى المركز.. ثم تعبئتها فى أجولة أو صناديق.. تمهيدا لنقلها لمصانع الألومنيوم فى القاهرة.. بيئة مختلفة تماما عما تصوروا

5

التواجد وسط أكثر من 50 شابا فى مكان واحد.. أمر يبعث على التفاؤل.. أما المدهش فكان شباب بنى سويف.. من المدارس التجريبية.. الذين اجتازوا كورسا فى اللغة الإنجليزية.. والموضوع الأثير للدكتور.. التنمية المستدامة.. فى

اليوم الأخير للتدريب.. دخل هؤلاء وسط أولئك من المدرسة السويسرية.. تناقشوا وتواصلوا.. دائرة ضمت 70 شابا وشابة من 22 دولة.. ملامح الشباب واحدة.. نفس الخجل المرتسم على الوجوه عن الإمساك بالميكروفون ومواجهة الجميع.. نفس الجمل التى تترجم السعادة بالوجود ضمن هذا التجمع.. نفس التعبير عن الرغبة فى التواصل مستقبلا.. تلك الدائرة البشرية المفعمة بالروح.. والتى تبادل فيها الجميع هدايا صغيرة مؤثرة..

ثم منطلقين إلى سفح الجبل.. لالتقاط الصور التذكارية معا.. قال لى د.عدلى: هؤلاء الشباب من بنى سويف.. هم البذرة الأولى لمشروع بدأته مع السفارة الأمريكية.. لتعليم اللغة الإنجليزية مجانا لطلبة المدارس العامة.. تم اختيار هؤلاء للدراسة مدة عامين.. وكان معيار الاختيار.. الذكاء والتفوق و الرغبة فى التعلم وامتلاك قدرات فنية.. كالرسم والموسيقى والغناء.. ومعرفة كافية بالكومبيوتر.. أعمل على التنمية الصحيحة لشخصياتهم.. إحترام الآخرين.. واحترام العقائد والأديان.. واحترام الذات.. التدريب فى هذه المعسكرات على القيادة.. وخدمة المجتمع.. والمشاركة فى حل المشكلات المحلية.. تنمية روح العمل الجماعى.. وهى أفكار تعمل عليها مؤسسات التعليم فى الخارج منذ زمن طويل.. فالمدربون فى المشروع 4.. من أمريكا وكندا.. جاءوا عبر منح تقدمها الجامعات الأمريكية والكندية واليابانية لخريجيها.. تدريب خارج الوطن.. على نفقة الجامعة.. وهو أمر إلزامى..

هؤلاء المدربون يعدون رسائلهم للماجستير فى موضوع التنمية المستدامة خارج أوطانهم..

6

المشروع ليس وليد اللحظة فى ذهن د.عدلى.. ولا هو مرتبط بمصر.. فقد طبقه من قبل فى: تونس والمغرب وتركيا والأردن والسنغال واليمن.. يعتمد فيه على نموذجين لمشاركة المشرفين: فإما أن يكونوا طلبة جامعيين يتم تدريبهم فى المركز.. بالاتفاق مع جامعاتهم.. ويحصلون على شهادات تدريب من المركز كمتطوعين.. وإما يكونون طلبة من مدارس اللغات الثانوية.. الذين يخضعون أيضا لدورات تدريبية.. يقومون بعدها بتدريب طلبة مدارس الإعدادى.. الفكرة هى تواصل الأجيال.. وهى لب التنمية المستدامة.. ولأنه جنوبى.. رغم هذه الشخصية الدولية.. بحكم العمل والتنقل والخبرات.. فقد أدرك أن جهده الذى وجهه فى البداية لمدارس اللغات.. يركز على: تاريخ الكواكب وفن القيادة واحترام منظومة البيئة والقضاء على التلوث وتنمية الثروة الحيوانية والنباتية.. يجب أن يسير فى سياقه الطبيعى.. بالتوجه للمدارس العامة.. فكان برنامجه للحوار بين طلبة مدارس اللغات والمدارس الحكومية والأهلية.. فى شمال الصعيد والدلتا.. بالشراكة مع وزارة الخارجية الأمريكية.. لتعليم طلبة

المدارس التجريبية اللغة الإنجليزية.. ليعبروا إلى نافذة الحوار الحضارى الدائر الآن.. مع مختلف الجنسيات.. تنمية المجتمعات.. وانخراط الشباب فى منظومة المجتمع المدني.. فى محافظات القاهرة والإسكندرية وبنى سويف وأسيوط والفيوم.. هو فكره.. إنشاء مواقع على الشبكة الإلكترونية لكل محافظة.. هو هدفه.. ثم إنشاء شبكة للمحافظات للذين تخرجوا فى هذه الدورات.. وفى مرحلة متقدمة تنشأ شبكة على مستوى البحر المتوسط.. ثم دوليا.. وهذا هو فكره المستدام.. فإصلاح الحنفيات ونظافة الشوارع المحيطة بالسكن.. وزرع أشجار صغيرة.. هى أول الخطوات التى بدأها مع هؤلاء الشباب.. الذين وصل عددهم إلى 6 آلاف متدرب.. يعودون إلى مدارسهم فيؤسسون نوادى للخدمة المحلية..

7

30 عاما من الخبرة فى هذا المجال.. قدم فيها د.عدلى خبرته فى 35 مشروعا للشباب فى مجالات التنمية والإدارة.. و 5000 قائد حول العالم.. ووضع خططا للتنمية البشرية واستراتيجية محاربة الفساد فى 17 دولة فى حوض البحر المتوسط.. وأكثر من 30 دولة إفريقية.. حاصل على وسام فارس من الدرجة الممتازة من رئيس جمهورية مدغشقر.. لما قدمه فى إعادة صياغة برامج التنمية ووضعها فى خدمة الإنسان والبيئة والتنمية المستدامة.. وشهادات تقدير من كثير من قادة العالم.. ومراكز البحوث والهيئات والمنظمات

الدولية فى التنمية ودعم الديمقراطية وحقوق الإنسان.. منزعج من فكرة ارتفاع درجة الحرارة.. فدرجة أو اثنين يعنى ذوبان الجليد فى المناطق القطبية.. وبالتالى ارتفاع منسوب المياه فى البحار والمحيطات إلى 5 أمتار.. فى كل بناية سيغرق دور كامل.. وتنهار البنية التحتية للأماكن الشاطئية والمنخفضة عن مستوى سطح البحر.. ذوبان الجليد يعنى نفوق الكثير من الحيوانات مثل الدب القطبى والبنجوين.. وحدوث خلل فى مواعيد هجرة الطيور.. فى الخارج يدرب أطفال المدارس الابتدائية.. على ترشيد كل شىء الكهرباء والمياه واستخدام مبعثات الغازات.. وينزعج أكثر تجاهلنا للطاقة الشمسية.. وطن قدس الشمس.. وصنع منها إله لآلاف السنين.. طاقة غير مكلفة وملائمة تماما للصحراء.. فى مركزه قدر الشمس فبنى ما يسمى بالبيوت الشمسية.. بيوت مبنية من الطوب الأبيض أو الجيرى المتوافر فى مصر.. حوائط بعرض 80 سنتيمتر بطريقة القباب والأسقف المرتفعة.. هوايات تعتمد على ديناميكية الهواء.. تصطدم تيارات الهواء فيها بالحوائط لا بمواجهة تيارات هواء أخرى.. يلف الهواء فى المكان فيبرده دون الحاجة لمكيفات صيفا أو شتاء.. بيوت بيضاء اللون فى مناطق تحافظ على البيئة.. وهو أساس اهتمامه..

8

مؤمن بالبشر.. ولا يعترف بمصر دولة فقيرة.. يرى العكس.. فهى دولة غنية.. بمواردها الطبيعية والبشرية.. حملة الماجستير والدكتوراه والأساتذة

يعادل عددهم فى 3 دول أوروبية مجتمعة هى: ألمانيا وفرنسا وإيطاليا.. عقول المصريين غير مستخدمة والمخططون متحجرون لا يقبلون الفكر الجديد.. اندهش من الثورة على ما سمى..تجرؤ البعض ومطالبته برفع الأهرام من قائمة عجائب الدنيا السبع.. فهو حزين لأن المنطقة تحولت إلى «مزبلة».. وئدت روعتها وجمالها بالمبانى التى التهمت الأراضى الزراعية المحيطة بمنطقة الهرم.. صرفها الصحى يتسرب إلى داخل الأرض فيؤدى لانهيار كل شىء.. الرؤية محجوبة عن أجمل موقع أثرى مصرى.. القوانين القديمة التى كانت محترمة فى العصر الملكى.. وحتى الأيام الأولى من الثورة.. التى تجرم البناء على الأرض الزراعية.. تم انتهاكها.. كما انتهك القانون الملزم بعدم تعدى البناء دورين على الأراضى المحيطة بالمنطقة وعلى بعد 10 كيلو مترات.. انتهاك جهد الفراعنة.. الذين بنوا مصر بفكر التنمية المستدامة.. لكنه مندهش من الجرأة فى رفض رفع الهرم من منظومة العجائب! لا يرى تعارضا بين فكره هذا وأى دين سماوى.. بل على العكس.. فهو يرى أن الحضارتين القبطية والإسلامية.. دخلتا مصر بمفهوم التنمية المستدامة.. فمحمد على عندما أرسل البعثات للتدريب بالخارج.. وجلب الخبراء لمصر.. وبنى القناطر والدلتا لم يكن يبنى لعصره.. كان يعمل بمفهوم التنمية المستدامة..

فكر التنمية المستدامة كان يعنى.. الدفع بأربعة مليون مصرى مثلا.. للهجرة إلى سيناء ليعيشوا فيها ويصبحون حائطا مانعا لأى تدخل أجنبى.. ألا تبنى مدينة العريش بناء رأسيا.. بينما الصحراء الواسعة تتطلب النمو الأفقى.. لا يجد معنى لأن يعيش بدو سيناء بنفس نمط وطريقة أهل المدن.. ويتساءل: لماذا لا أمنحهم الأرض.. ويقومون بتنميتها بطريقتهم وبأسلوبهم؟! شبابهم يرغبون فى قرى تحتفظ لهم بطابعهم.. هويتهم البدوية مهمة.. كل مايحتاجونه المياه والكهرباء على بعد 2 كيلو مترا من مكان البناء.. سوف تخرج منهم أفكار جديدة مفيدة.. كأن يبنون قراهم على التلال أو فى شكل دوائر.. هذا يحدث فى كل دول العالم.. نفس المأساة حدثت فى مرسى مطروح وواحة سيوه.. فى شكل عمارات سكنية سيئة ومفتقرة للجمال.. التنمية المستدامة تعتمد على الجمال وتحارب كل أنواع التلوث..

اهتمامه بالصعيد قديم.. عميق.. يذكر عام 1997.. وتلك الضربة موجعة.. حيث حفر الإرهاب بحادث الدير البحرى فى الأقصر.. ذكرى مؤلمة على ذاكرة كل المصريين.. وقتها عمل د.عدلى بتكليف من د. ممدوح البلتاجى وبتمويل من هيئة المعونة الأمريكية.. على وضع استراتيجية للتنمية السياحية المستدامة فى مصر حتى عام 2017.. هى المعمول بمعظمها حتى الآن.. بدونها كانت انعدمت السياحة فى تلك المنطقة.. أدخلت فكر سياحة

الصحراء والمؤتمرات والغطس والاستشفاء لم تكن موجودة من قبل.. ومن هنا يرى أن استخدام الساحل الشمالى والبحر الأحمر خاطىء.. ولابد من إصلاح الإهدارات التى تمت.. فقرى لا تملك مقومات الاستمرار 12 شهرا فى العام.. إهدار للاستثمارات.. يتمنى نقل مركزه بأبنيته وحدائقه لأى مكان فى العالم.. والسبب إدارة الأملاك والضرائب بمحافظة بنى سويف.. يحيطه منزل عشوائى.. ومقابر تم بناؤها بوضع اليد.. البيروقراطية خانقة.. والفساد ذا أصابع فولاذية فى الطبقات الإدارية الدنيا.. ودكتور عدلى.. رجل صعيدى صلب.. لكن.. للصبر حدود!

السابعة

أسوان.. معنى الإبحار جنوبا!

عام 1994 زرتها لأول مرة.. محافظة مبهجة.. على بساطتها.. محظوظة لأن بها أكثر أجزاء نيل مصر صفاء.. ومحظوظة ببشرها.. أهل أسوان الطيبين.. ومحظوظة بطبيعتها المميزة.. ونقاء جوها.. مقبرة الأغا خان.. وجزيرة النباتات.. ومعبد أبو سمبل.. أهل النوبة.. وتمثال العقاد.. والنصب التذكارى للسد العالى.. الذى انتهى بناؤه فى 15 يناير عام 1970.. فصار اليوم عيدا قوميا للمحافظة.. وزرتها ثانية بعد حادثة الدير البحرى الشهيرة بعدة أشهر.. فكانت مختلفة.. وزرتها ثالثة عام 2007.. فكانت مختلفة تماما.. وبين كل هذه الزيارات.. بقيت فى القلب عمق أمن مصر الجنوبى الذى يستحق التقدير..

1

عندما تجول بنا القارب الشراعى فى نيل أسوان لأول مرة.. كان الصمت هو الخيط الذى ربط 20 شخصا على متنه.. يتطلعون فى كل الاتجاهات.. للأشجار على شاطئه الشرقى.. كاسية فروعها أطارف الماء الملامسة لطميه الناعم.. آخر محافظات مصر الجنوبية.. تلتصق بها فى حنو محافظة قنا شمالا.. وتقع بين ذراعى محافظة البحر الأحمر شرقا.. ومحافظة الوادي الجديد غربا.. محافظة هى نهاية وطن ونهايتها بداية الحدود مع آخر.. فجمهورية السودان تجاورها جنوبا.. وعلى مساحة 34 ألف و 608 كيلو مترا.. يعيش عليها ما يقرب من مليونى نسمة.. والمدهش أنهم يشكلون أغلبية من «الزمالكاوية» فى الوطن! فهى أكبر محافظات مصر تشجيعا لنادى الزمالك.. مبتعدة 879 كيلو مترا عن العاصمة.. تشكل عائلات.. الجعافرة و العبابدة و الأنصار و العليقات وبنى هلال و المناقرة والمرارى والحرايزة و القضاه.. العمود الفقرى لبنيانها السكانى.. تلك الجولة النيلية استغرقت ساعة.. تحت شمس فبراير الهادئة.. ورغم أن برنامج اليوم كان حافلا بزيارة جزيرة النباتات.. تلك البقعة التى تحوى نباتات نادرة من مختلف دول العالم.. والتى جلبها الأغا خان.. حيث مقبرته فى هذه البقعة.. ومعبد أبو سمبل.. إلا أن ما فعلته تلك الرحلة النيلية فى النفوس كان عميقا.. ودفع الكثيرين للمطالبة بتكرارها مرة أخرى قبل مغادرة أسوان..

فى عمق النيل.. أشار المراكبى إلى أحد المنازل الضخمة.. من دورين أعلى تلة تطل مباشرة على النيل قائلا: هذا بيت «منير».. بالطبع سأل البعض.. رغم يقينهم بأن «منير» هذا هو «محمد منير» المطرب النوبى المعروف.. منير من؟ وجاء الرد المعروف سلفا من المراكبى: «محمد منير».. كان المنزل لافتا للنظر.. بنيان حجرى بسيط.. هو فى الحقيقة فيلا كبيرة.. لكن الثقافة الجنوبية لا تعترف بالتسميات الحديثة.. فالبناء المستقل بذاته هو بيت.. بغض النظر كان قصرا أم مجرد حجرتين.. فخما أم بسيطا.. فكرة البيت.. فكرة ضاربة فى جذور الثقافة الجنوبية.. ولا مجال للحديث عنها أو حولها.. ناهيك عن أى محاولة فاشلة لتغييرها.. وربما كان هذا سر الأزمة القديمة الجديدة لأهل النوبة..

2

أهل النوبة.. القبائل التى سكنت المنطقة الممتدة بين شمال السودان و جنوب مصر.. ذاك الحوض القديم للنيل الذى بلغ طوله حوالى 123 كيلو مترا شرق المجرى الحالى.. ومكانه كان جنوب الشلال الثالث.. وكان يسمى وقتها «وادى الخوى».. تحدثت تلك القبائل اللغة النوبية.. واستمرت تتحدثها حتى الآن.. أضيف إليها اللغة العربية والإنجليزية.. وبتطور العصور تحدث الجيل الحالى بطلاقة اللغات الفرنسية والإيطالية أيضا.. فهم أكثر انفتاحًا تجاه السائحين والزوار الأجانب.. يحكى أهل النوبة الكثير من الحكايات عن تلك اللغة.. التى كانت سرا من أسرار حرب 1973.. فقد استخدمها الجيش المصرى كشفرة أثناء الحرب.. بين الأركان والقيادة الميدانية.. وعجز

الإسرائيليون عن فك طلاسم هذه اللغة.. الفراعنة القدماء أسموها بلاد «كوش».. التى يرجع تاريخها للعصر الحجرى.. ماقبل التاريخ.. فإمتد نفوذ ممالكها علي وادي النيل.. مرورا بمصر والأردن وفلسطين حتى جنوب تركيا شمالا... وفى منطقة الخرطوم.. وجدت آثار حجرية من الفخاروالخزف.. ترجع لجنس إفريقى مختلف عن أى جنس موجود حاليا.. تلك القبائل القديمة تقدس فكرة المنزل.. أو البيت.. فهو معنى لكلمة الأسرة أو القبيلة.. وليس مجرد براح فى الجدران.. وتقدس مكانها الذى يحمل تاريخها لآلاف السنين الماضية.. ومن هنا يتحول الأمر لأزمة.. بالاقتلاع من التاريخ.. ونقلهم لمنطقة أخرى.. وتدمير المفهوم المعنوى للأسرة.. بنقلهم إلى شقق فى عمارات سكنية.. حرصهم على تاريخهم بكل تفاصيله.. كان وراء تمسكهم بغنائهم ذى الطابع المميز بسلمه الخماسى.. وهو السلم الموسيقى الفرعونى.. ذاك الغناء الذى تمسك به مطربهم – حتى لو تحفظوا عليه – محمد منير.. وكان سر عالميته..

3

محمد منير المولود فى 1 أكتوبر عام 1954.. فى قرية الدر القديمة بالنوبة.. عاش وتعلم فى أسوان قبل أن يهاجر مع أسرته فى صباه للعاصمة.. بنى السد العالى.. وغرقت قرى النوبة تحت مياه بحيرة ناصر التى خلفها فى أوائل السبعينيات.... كان ممثلا وعازف دف.. أحب الغناء كهاو منذ الصغر.. غنى لرفاقه فى الجيش.. تخرج فى قسم الفوتوغرافيا والسينما والتليفزيون بكلية الفنون التطبيقية جامعة حلوان.. دربه أحمد منيب على أداء ألحانه وألحان غيره

النوبية.. وفى مرحلة لاحقة استخدم كلمات عبد الرحيم منصور وفؤاد حداد.. الخارج عن أدبيات الأداء المعروفة للمصريين.. لم يرتد بدلة.. لم يقف ثابتا أمام الميكروفون.. عصبى الحركة.. لهجته خليط بين القاهرية والأسوانية.. فى التسعينيات انتقل من مغن للمثقفين.. إلى الشارع.. محمد منير الذى يراه قدامى النوبيين.. لا سيما المتذوقون للموسيقى.. قد أفسد الغناء النوبى.. فحلاوة هذا اللون الغنائى تكمن فى طزاجته.. وعفويته.. بألفاظه وآلاته وكلماته.. دونما تطوير أو تحديث أو تغيير.. بينما يراه آخرون رسولا لهذا اللون فى الخارج.. وأنه لم يكن هناك من سبيل للعبور به للعالمية.. سوى ما أضافه منير من تطوير.. وبين الاتجاهين.. يبقى منير معشوق المصريين من كل الطبقات والثقافات والأعمار.. عنوانا لمصر الجنوبية رغم كل الاختلاف..

4

مصر الجنوبية.. الصلبة التى لا تهتز بفعل عوامل التعرية.. أو الرياح التى تأتيها من الشرق أو الغرب.. أو حتى التى تأتى من الداخل.. تلك الأخيرة.. قد تكون مؤلمة.. لكن الضربة التى لا تميت تقوى.. وهو مثل صينى معروف.. رأيت أسوان للمرة الثانية فى فبراير 1998.. بعد الحادثة الإرهابية فى الدير البحرى بقليل من عمر الزمن.. كانت أسوان مختلفة.. موجوعة.. مريضة.. لكنها خضراء.. بمساحاتها المزروعة التى تزيد على 146 ألف و886 فدان.. تلك المساحات التى تحولت فيها بطلب خاص.. بعضها للبلح.. و معظمها مزارع لقصب السكر.. وما أدراك ما قصب السكر.. يعتبره بعض الجنوبيين

ثروة قومية تميزهم.. ففى هذا الوقت كان متوسط إنتاج الفدان 50 طنا.. ومتوسط إنتاج المحافظة 3 مليون و300 ألف طن فى هذا العام.. بينما اعتبره البعض الساتر الوحيد من الشرطة.. لم أدخل مزارع قصب من قبل.. وكانت المشاهات عن بعد غير كافية لاستيعاب.. تقدير الإرهابيين لمزارع القصب كمنقذ لحياتهم.. هبطت أحد هذه المزارع.. وكان معى دليل.. وهو أحد المزارعين.. فليس سهلا على داخل تلك المزارع أن يخرج منها.. طول أعواد القصب يفوق طول الإنسان الطبيعى متوسط الطول بمرة ونصف.. وهى متراصة بجوار بعضها البعض.. بشكل لا يسمح للضوء أن يمر من خلالها.. فتبقى مناطقها الداخلية السفلى مظلمة فى وضح النهار.. تلك الغابات المترامية من الأعواد.. مثيرة للدهشة والخوف أيضا.. من السهل قتل إنسان داخلها دون أن يعى أحد عنه بالخارج شيئا.. ففى الداخل عالم منفصل تماما.. كنت قد رأيت من قبل مزارع الذرة.. وتجولت داخلها.. كانت بسيطة.. فقيرة.. هادئة.. مزارع القصب كانت شيئا مختلفا.. كانت معقدة.. متشابكة.. قاسية.. دخلتها وقلبى مفعم بالحادث الإجرامى فى الأقصر.. لأنى زرته هذا العام قبل قدومى إلى أسوان.. فكان تأثرى وحيرتى متساويين.. هل نحرق القصب أم نحرق الإرهاب من جذوره.. كانت معادلة اللواء عبد الحليم موسى وزير الداخلية السابق الصعبة!

5

كانت إقامتنا فى باخرة نيلية طوال الرحلة.. فكانت الحياة داخل النيل ذات مذاق فرعونى مؤثر.. رأينا عن بعد مصانع السكر والسبائك المعدنية والكيماويات وتعبئة البلح والأسماك.. وقرب مدخل السد العالى.. كان يستقر شامخا تمثال نصفى لأديب مصر ومفكرها عباس محمود العقاد.. ابن محافظة أسوان.. الذى ولد فى 28 يونيو عام 1889.. حصل على الشهادة الابتدائية فقط.. ثم انتقل لدمياط عاملا بمصنع للحرير.. ثم التحق بالسكك الحديدية.. كان مولعا بالقراءة فأنفق نقوده فى شراء الكتب.. عمل بمحافظات قنا، والشرقية ثم استقر فى الصحافة.. فأصدر مع محمد فريد وجدى صحيفة الدستور.. التى كانت بابا تعرف من خلاله على سعد زغلول وآمن بمبادئه.. حصل من الرئيس الراحل جمال عبد الناصر على جائزة الدولة التقديرية فى الآداب.. لكنه رفض تسلمها.. كما رفض الدكتوراة الفخرية من جامعة القاهرة.. اشتهر بمعاركه الفكرية مع عظماء مصر وقتها.. د.زكى مبارك ومصطفى صادق الرافعى ود.عائشة عبد الرحمن.. ترجمت كتبه إلى عدة لغات.. كتاب «الله» و «عبقرية محمد» و «عبقرية الإمام على» و «أبو الشهداء» إلى الفارسية، والأردية، والملاوية.. وترجمت كتب أخرى إلى الألمانية والفرنسية والروسية.. تحمل إحدى قاعات كلية اللغة العربية جامعة الأزهر اسمه.. وفى القاهرة يحمل اسمه أحد شوارع مدينة نصر.. كتب عن «عبقرية المسيح» ..

وصوفية ««ابن الرومى» الفارسى.. و «الحسين أبو الشهداء» وأبو الشيعة.. وعن نعمة «التفكير فريضة إسلامية».. وعن «الديمقراطية فى الإسلام».. فكان سابقا لعصره فى أفكاره والإشكاليات التى عالجها.. حتى توفى فى 12 مارس 1964.. استقبلنا تمثاله ونحن ندخل منطقة السد العالى.. عاش التجربة لكنه لم يشهد اكتمالها.. ونحن لم نعشها.. لكننا جئنا اليوم شهودا على عظمتها.. من فوق ذاك النصب الذى بناه الروس.. تخليدا لعلاقة أفرزت هذا الإنجاز الذى يبعث على الفخر.. شاهدنا من عل انحدار المياه المبهج فى بحيرة السد.. وشاهدنا تفاصيل البناء.. التى كانت تحملها الصور إلينا مرارا وتكرارا.. فلا نرى كل هذه العظمة التى تشى بتعب سنوات طوال ورائها.. عام 1970.. عندما انتهى البناء.. لا أدرى كم كان عمر «حجاج أدول».. الذى تحفظ عليه أعضاء النادى النوبى.. فصار نجما للصحف الأمريكية فيما بعد؟ ولكنى أعلم أن عمر محمد منير كان 16 عاما.. ترى أى مشاعر كانت قد اختلجت فى صدره.. وهو يغادر تاركا هذا الصرح وراءه؟!

6

فى 2007 لم أدخل أسوان المدينة.. ولا تجولت على شاطىء نيلها الخاص.. دخلت فى عمق الصحراء.. من مطار أسوان.. إلى خضرة الصحراء.. «كلابشة الجديدة».. كنت مدعوة من قبل برنامج الغذاء العالمى.. الذى ينفذ مشروعا بالتعاون مع وزارة الزراعة.. لاستصلاح منطقة بحيرة ناصر.. إنشاء 10 قرى

على الأراضى العالية لشواطئ بحيرة ناصر.. وهى مناطق كانت تعانى نمطا زراعيا غير مستقر على الشواطىء.. ومعاناة الفيضان.. فكرة المشروع بتغيير هذا النمط .. إلى زراعات مستقرة وكانت النتيجة استصلاح ألف و 750 فدانا.. وزراعتها بمحاصيل متميزة.. استخدم زراعة حيوية.. دون مبيدات أو مخصبات كيماوية.. وهو ما كان سببا فى التوسع فى تصدير منتجات تلك الأرض إلى الأسواق الأوروبية.. استقرار 350 أسرة وكفالة حياة مستقرة وآمنة لهم.. ببناء منازل تتناسب مع طبيعة المكان.. كاملة المرافق شرط إقامة المنتفع مع أسرته فذاك هو شرط التعمير منذ أيام الفراعنة ..

دخلت بعض تلك المنازل..على مساحة 200 متر.. كان البناء بملحقاته.. غرفتى معيشة واسعتين.. وصالة كبيرة.. ومكان لتربية الحيوانات.. ومكان ملحق كمخزن.. وساحة واسعة فى خلفية المنزل تسمح بالتوسع بالبناء مستقبلا.. الأبنية تحافظ على الشكل التقليدى النمطى للمكان.. وتسمح بالخصوصية.. بقدر ما تسمح بالتواصل مع الجميع.. دخلت المدرسة التى تم بناؤها.. والوحدة الصحية والمخبز والنادى الاجتماعى ومنافذ بيع الخضر والفاكهة.. وهى خدمات اكتمل بناؤها باكتمال بناء المنازل.. شىء يدعو للتفاؤل والشعور بالأمل.. أن تقطع كل تلك المساحة فى الصحراء.. ثم يداعبك اللون الأخضر المحبب للمزروعات عن بعد.. 1750 فدانا على بحيرة ناصر.. هذا اللون يعرفه جيدا.. ويعشقه.. ويقدسه.. المواطنون الذين تربوا فى أحضان الأنهار.. مثل المصريين.. لون الزرع الأخضر.. لون يعرف قيمته جيدا أصحاب التاريخ فى الزراعة.. فى «كلابشة الجديدة» و «عافية» و

«بشاير الخير»..و 21 قرية أقيمت فى أسوان.. وهو أمر دفعنى للتساؤل.. ألا يملك كل الذين يبثون نقدا.. ولا يرون غير الستائر السوداء.. ألا يملكون نظرا.. فيرون ما يحدث بعيدا فى صمت فى عمق الصحراء؟! يبدو أنهم لا يملكون!

7

فى «كلابشة الجديدة».. كان محمد عبد الراضى.. واقفا بباب منزله مبتسما.. توقعت أن يدعونى – كما كل الآخرين – لتناول الشاى.. لكنه اكتفى بتحية «منورين كلابشة».. كان عمره وقتها 42 عاما.. كان مزارعا يقطن قرية «الكوبانية القديمة» غرب النيل.. وانتقل إلى بحيرة ناصر مع زوجته وبناته الثلاثة.. وبدأ مشروعه فى الزراعة.. بعدها بأسبوع زار الرئيس مبارك المنطقة.. ورأيت محمد عبد الراضى على شاشات التليفزيون.. يقدم للرئيس شايا بالنعناع! كانت الكاميرا تستعرض تلك المساحات الهائلة من المزروعات.. فتصل الفكرة ببساطة للمشاهد.. الخروج من الوادى الضيق.. تلك هى المسألة.. فى الوديان المتفرعة من النيل تقبع 11 قرية بهذا الشكل.. لا يعرف عنهم الكثيرون.. ففى «وادى الصعايدة» 6 قرى أقامها المواطنون بجهودهم الذاتية فى منطقة 24 ألف فدان.. عندما شرعوا بالإعمار أضافت الدولة لهم 11 ألف فدان ليصبح إجمالى زمام «وادى الصعايدة» 35 ألف فدان.. أما «وادى النقرة» فهو ثانى الوديان المعمرة بهذه القرى.. تحتل 5 قرى مساحة 15 ألف فدان.. مضافا إليها 50 ألف فدان للمستثمرين.. ليصبح إجمالى زمامه 65 ألف

فدان.. مساحة هائلة من الخضرة والآلات والبيوت العامرة بأصحابها.. أبناء وطنى.. ذوى البشرة السمراء.. الذين يملكون قلبا ناصع البياض.. يعزفون لحنا للوطن كله.. لا لأسوان فقط..

8

فى نفس العام الذى زرت فيه أسوان.. 2007.. كان أحد أبنائها يغادر الحياة.. أحد هؤلاء الذين غنوا لحنا للوطن كله فغنى وراءه كل المصريين.. كلمات عبد الرحمن الأبنودى.. وألحان إبراهيم رجب .. ملحمته «يا بيوت السويس يا بيوت مدينتى..استشهد تحتك وتعيشى إنت.. هيلا هيلا يالاه يا بلديا.. شمر دراعتك الدنيا أهيه».. غناها بين حشود الناس.. مقيما وسط جنود وضباط الجيش المصرى بعد هزيمة 1967.. طاف بالجبهة لرفع همم الجنود وأفراد القوات المسلحة المصرية فى سنوات حرب الاستنزاف.. «محمد سيد محمد إبراهيم».. الذى دخل كلية الفنون الجميلة.. ثم ما لبث أن اعتقل عام 1959.. فتأخر ظهوره كمطرب.. وتأخر أيضا تخرجه من الكلية.. صوت يحمل كل الثقافات متداخلة.. فيه الشكل الغنائى الصعيدى.. والنوبى.. والإفريقى.. والبدوى.. أنفق ماله من عمله كمهندس لخدمة فنه.. يذكر أهل أسوان يوم وفاته.. بتفاصيل نقل جثمانه إلى المحافظة بطائرة عسكرية وجثمانه ملفوفا بعلم مصر.. بأمر من وزير الدفاع المصرى.. واستقبال المستشار العسكرى ومحافظ أسوان للجثمان.. والواحد وعشرون طلقة التى أطلقتها المدفعية.. وسمعها القاصى والدانى.. نعى رئيس الجمهورية.. وتنكيس

الأعلام بمدينة السويس.. هذا المصرى الذى جابت شهرته الآفاق.. عمل فى الثمانينات مهندسا خاصا.. ينفذ بعض أعمال المقاولات.. التقاه البعض فى مدينة العاشر من رمضان.. فقط مهندس.. متواضع.. يحترم عمله.. ملتزم.. «محمد حمام».. تحية ورحمة من أرض المحبة..

9

يبقى فى الذاكرة دائما صورة.. عن كل مكان مهما كثرت تفاصيله.. قد لا تكون الأهم.. لكنها الأكثر حظا فى الالتصاق بالعقل والقلب معا.. تلك الصورة التى تقفز دائما.. لطاقم الفندق العائم الذى نزلت به عام 1998.. بعد حادثة الدير البحرى.. لم يكن بالنفدق سوانا.. هذه المجموعة لهذه الرحلة.. لم يكن هناك أى سائحين أو زوار من أى نوع.. فتولدت علاقة أكثر حميمية على مدار أسبوع.. حكى فيها الطاقم ما لا يجب حكيه لضيف أو نزيل.. وكان أطرف ما فى هذا الأسبوع.. هستيريا «إطعامنا» التى سيطرت على هذا الطاقم.. والتى تحولت إلى ما يشبه الانتقام فى شخصنا من كل السائحين.. بإطعامنا الطعام الافتراضى للنزلاء فى حال اكتمال العدد بالفندق!

الثامنة

العلمين.. أرض الشيطان!

زرت منطقة العلمين مرتين.. دون سبق إصرار.. فى المرة الأولى عام 1998.. كنت فى الساحل الشمالى.. ومررت على المنطقة فى اليوم الأخير لرحلتى.. دخلت فيها المتحف الحربى.. وفى المرة الثانية 2006.. كنت فى محافظة مرسى مطروح.. وزرت متحف روميل فى جزيرة روميل.. شاء قدرى أن أزور متحفين.. يرويان عبر مقتنياتهما.. تاريخ المعركة الشهيرة للحرب العالمية الثانية.. والتى سميت باسم المنطقة.. «معركة العلمين».. بين قوات المحور بقيادة روميل.. وقوات الحلفاء بقيادة مونتجمرى.. وانتهت بهزيمة روميل.. المنطقة التى تسمى حتى الآن باسم «أرض الشيطان».. بألغامها التى بلغت 25 مليون لغم.. وأراها أرض الأحلام.. التى قد تكون مؤجلة!

1

عند الكيلو 106 بين محافظتى الإسكندرية.. ومرسى مطروح.. لا تشى مساحات الرمال المترامية.. على جانبى الطريق.. بأى حياة.. كل تلك الصحراء الواسعة.. لا تشى أبدا إلا ببقايا تاريخ.. مدينة العلمين.. التى تبعد 300 كيلو مترا شمال غرب العاصمة القاهرة.. يسكنها حوالى 5000 مواطن مصرى.. وهى عاصمة مركز العلمين التابع لمحافظة مرسى مطروح.. تتبع المدينة الشهيرة قريتى: سيدى عبد الرحمن وتل العيس.. قبل عام 1939 – بداية الحرب العالمية الثانية – كانت مجرد قرية صغيرة لا يعرفها إقليميا أحد.. تزرع النخيل وشجر الزيتون.. ثم تغير كل شىء بعد معركة العلمين الشهيرة.. التى سطرت على أرض هذه الصحراء هزيمة القائد الألمانى «روميل».. وخلفت وراءها 25 مليون لغم.. يدفع المواطنون المصريون ثمنا باهظا كل يوم.. ثمن لشهرة لا يبغوها.. ولا سعوا من أجلها.. وفى نفس المنطقة التى التى ظلت طوال 70 عاما – منذ 1939 – محل انتباه الدول الأوروبية كلها.. وبصدق.. لأن بها رفات بشر من هذه الدول.. مقابر الكومنولث.. المدفون فيها جنود تلك المعركة.. والتى تضم أيضا نصبا تذكاريا لتخليد هؤلاء الضحايا.. المهزومين.. والمنتصرين فى ذات الوقت وفى نفس المكان.. الجامع فى هذه البقعة بجوار الكنيسة.. والمسلة الفرعونية بجوار اللوحة التى تحكى أحداث تلك الحرب.. ومقابر الجرانيت مغلقة على رفات 4280 جندى..

2

فى مربع مشجر.. عبرت ممشى ممهد بالحصى.. ليس هناك سوى صمت صفير الصحراء.. دلفت من بوابة مفتوحة على مصراعيها.. بناء أنشىء بعد أكثر من 20 عاما على السطر الختامى لمعركة «العلمين».. وإسدال الستار على ذاك الجزء القاتم من تاريخ دول.. كانت منطقة شمال إفريقيا مسرحا له.. «متحف العلمين الحربى».. أنشىء عام 1965.. كان مدهشا لى رؤية الأسلحة التي استخدمت فى الحرب العالمية الثانية.. والملابس التى ارتداها الجنود وقتها.. والاطلاع على مخططات حركات القوات باللغة الإنجليزية.. وترجمة بالعربية.. تماثيل للجنرالات والقادة فى المعركة.. القاعات الخمسة التى حملت أسماء الدول التى اشتركت فى الحرب: مصر، إيطاليا، ألمانيا، إنجلترا، ثم مركز القيادة.. يفضى إليها البهو الرئيسى الذى يتوسطه النصب التذكارى..

القاعة الأولى.. مشتركة فهى تضم معروضات للدول التى اشتركت فى الحرب.. تورد فيها أسباب قيام المعركة.. تليها الثانية.. إيطاليا.. عرض لقواتها المشاركة فى معارك شمال إفريقيا بتشكيلاتها المختلفة.. والثالثة.. مصر أنشئت هذه القاعة ضمن تطوير.. وإعادة افتتاحه عام 1992.. فى العيد الخمسين لمعركة العلمين.. توضح دور مصر فى الحرب العالمية الثانية.. وفى مرحلة التطوير هذه شاركت ألمانيا وإنجلترا وإيطاليا بالمزيد من المعلومات والمعروضات حول المعركة.. القاعة الرابعة.. القوات الألمانية التى اشتركت فى نفس المعارك.. أما الخامسة.. فللقوات البريطانية بتشكيلاتها المختلفة.. وفى المتحف.. الكثير من الأسلحة الثقيلة الخاصة بقوات المحور والحلفاء التى استخدمت وقتها..

كان كل مكان فى هذا المتحف يستدعى إلى ذهنى.. روح الرجل الذى صاغ أيام المعركة تلك.. «إرفين روميل».. كنت قد قرأت مذكرات الرجل عن تلك الفترة.. فعرفت معنى أن تؤمن بشىء.. فتعمل – حتى الموت – على تحقيقه.. حتى لو تآمر العالم كله عكس ذلك.. وعكس المقولة الشهيرة للكاتب البرازيلى «باولو كويلهو «.. «إذا أردت شيئا بإخلاص.. فإن العالم كله يتآمر من أجل تحقيقه»..

3

وأنا واقفة بالضبط فى منتصف البهو الرئيسى.. كنت محاطة بأرواحهم.. التى بقيت هنا منذ 67 عاما.. أرواح جنود القوات المتصارعة.. التى كانت قد أمضت عامين فى إفريقيا.. من تونس إلى ليبيا.. قبل أن تصل إلى مصر.. فيكتب فيها سطر الختام.. «معركة العلمين».. أهم معارك التحول في الحرب العالمية الثانية.. كانت قوات المحور التى تضم ألمانيا وإيطاليا.. يقودها «إرفين رومل».. وقوات الحلفاء وعلى رأسها بريطانيا.. يقودها «برنارد مونتجمرى».. صاغت في نوفمبر عام 1942.. أهم معارك الدبابات على مدار التاريخ.. التى عانى فيها «روميل» وقواته.. نقصا شديدا في الوقود والإمدادات.. فقد أغرقت القوات البريطانية حاملة النفط الإيطالية.. فتم شل حركة تقدم الدبابات.. والتى أدت بدورها لتراجع «روميل» وجيشه إلى ليبيا.. ثم كل إفريقيا وحتى مالطا.. وكانت «العلمين» بداية خسائر الألمان.. التى لم يقدر حجمها الزعيم الإيطالى «بنيتو موسولينى».. 195 ألف جندى مدججين بألفين و311 مدفعا و1029 دبابة من الحلفاء.. يضغطون أمامهم 104 ألف جندى و1219 مدفعا

و 489 دبابة للمحور.. يتلقى البريطانيون إمداداتهم عبر مينائى الإسكندرية الذى يبعد عن الجبهة 110 كيلو مترا.. والسويس الذى يبعد 345 كيلومترا.. بينما تصل إمدادات المحور من أقرب ميناء «طبرق» على بعد 590 كيلو مترا.. وبنى غازى 1050 كيلو مترا.. وطرابلس 2100 كيلو مترا.. تحت غارات قادمة من مالطا والصحراء.. كنت أتصور مشاعر هؤلاء الجنود.. غرباء فى وسط الصحراء.. لا يعلمون بأى جريرة يواجهون الموت فى وطن بعيد.. وما أشبه الليلة بالبارحة.. فقد كانت تلك مشاعر وصفها جنود التحالف 2003.. فى العراق يواجهون الموت.. دون سبب واضح من وجهة نظرهم!

4

فى عام 2006.. زرت متحف الرجل الذى كتب فى مذكراته عن معركة العلمين «إن الفشل فى القيادة والأخطاء الاستراتيجية والأحقاد والبحث الدائم عن كبش فداء.. كل ذلك سارع فى إيصالنا إلى ذروة المأساة.. والذى دفع الثمن كان الجندى الألمانى والإيطالى».. القائد الألمانى الذى يتمتع بحس تكتيكى واستراتيجى.. نادرا ما تجده بين القادة.. «إروين روميل».. متحف روميل يقع فى جزيرة حملت اسمه.. فى مواجهة الميناء الشرقى لمدينة مرسى مطروح.. ويبعد عنها بمسافة كيلو مترين ونصف.. المتحف عبارة عن كهف فى بطن الجبل.. يضم بعض مقتنيات القائد الألمانى الشهير التى أهداها لمصر «مانفريد روميل» ابن القائد الألمانى الراحل.. وقفت مشدوهة أتابع سير معركة «العلمين».. عبر كل تلك المخطوطات.. والخرائط التى توضح سير المعركة من بدايتها.. والأسلحة والذخيرة.. والدبابات.. وملابس الجنود المختلفة..

والجنرال «روميل» نفسه.. جمعنى بالعدد الضخم من السائحين الموجودين فى المتحف.. نفس الشعور الصامت.. التقديس لهذا الجهد العسكرى الذى قاده الرجل.. اختلف مع الفكرة من أساسها أو اتفق.. تقدير لقيمة الرجل واستبساله وإحترامه لوطنه ولبذلته العسكرية.. نفس الشعور بالحنق على الحرب.. وما تفعله بالبشر.. وبالقيم والأوطان.. نفس الشعور بالأسى على الجنود البسطاء.. الذين قضوا حتفهم خارج وطنهم.. ونقف نحن بعد أكثر من 60 عاما.. أمام بقايا ملابسهم وأسلحتهم.. وبقايا أرواحهم داخل صحرائنا مصرية.. حقا «ولا تدرى نفس بأى أرض تموت».. أما «روميل» نفسه.. والذى كان ينتظر الموت فى شمال إفريقيا.. مرات فى ليبيا.. ومرات فى تونس.. وصار لديه يقين أنه لن يخرج من تلك الصحراء المصرية.. بحسب ما ذكر فى يومياته عن تلك الحرب.. كان مستعدا بثبات للقاء الموت غريبا عن وطنه.. مؤمنا بكل ما أقدم عليه.. لكنه لم يمت فى مصر ولا إفريقيا.. ولم يمت برصاصة أو قصف فى معركة.. مات مجبرا على الموت.. فلم يكن هناك خيار آخر بالنسبة لقائد مهم!

5

استغرقنى هذا القائد كثيرا.. قرأت عنه كثيرا.. فقد كان نموذجا لفرسان العصور الوسطى.. الذين يصعب تصور وجودهم مع هذه الحياة الحديثة.. مولود فى 15 نوفمبر عام 1891.. فهو ينتمى لبرج «العقرب».. بكل قسوته واعتداده بنفسه وتقديره للآخرين.. بكل إيمانه بقيم بعينها.. يدفع عمره ثمنا للحفاظ على قيمه تلك.. ولد فى مدينة «هايدنهايم» قرب مقاطعة «شتوتجارت»

الألمانية.. وحمل لقب «ثعلب الصحراء» بجدارة.. قادر على المراوغة.. واتخاذ القرار المناسب فى الوقت المناسب.. حاسم قاسٍ على نفسه قبل الآخرين.. ينتمى لذاك النوع من البشر الذين يعمل عقلهم بسرعة شديدة.. أسرع من قدرة الآخرين على ملاحقتها.. أجبره قائد ألمانيا النازى «هتلر» على الانتحار.. بعد اتهامه بالضلوع فى محاولة اغتياله.. خيره بين الانتحار وإقامة جنازة عسكرية.. وتشييع رسمى مهيب.. أو الهروب والتعرض للمثول أمام المحكمة العسكرية ومواجهة الإعدام.. وفى 20 يوليو عام 1944 كان له الخيار الأول.. الانتحار.. بعد هزيمة «العلمين» بعامين..

تنسب له التكتيكات المستخدمة إلى يومنا هذا فى حرب المدرعات.. تلك التى ابتكرها فى حملة شمال إفريقيا.. فى الحرب العالمية الثانية.. هاو للمناورات السريعة والمفاجئة.. كانت ميزة «روميل» الشديدة.. أو قل مأساته.. أنه لا يعرف اليأس.. وكان أشد ما يؤلمه – بحسب مذكراته – روح الانهزامية التى شاعت بين جنوده من الإيطاليين فى ليبيا.. لم يعترف بقسوة الحرب.. كان مؤمنا بالاستمرار فهو شرف.. وكان ينزل بنفسه وسط الوحدات والقوات الصغيرة التى تتمركز فى أماكن بعينها.. كان سريع التصرف بعلم.. وكان أشد ما يعوقه.. بطء القيادة الإيطالية.. التى كانت تحت قيادته فى شمال إفريقيا.. فى التصرف والاستجابة واتخاذ القرار.. غادر الحياة وعمره 53 عاما..

كان يكتب يوما بيوم عن تفاصيل تلك الأعوام القاسية فى صحراء شمال إفريقيا.. وبذلت أسرته وأصدقاؤه جهدا خارقا للحفاظ على ما كتب ونشره فى يوم من الأيام.. ابنه «مانفريد» وزوجته وشقيقته وأصدقاؤه.. تبعثرت مخطوطاته تلك.. فى باطن حديقة منزل أخته.. وداخل جدران إحدى

المستشفيات الألمانية.. وفى أقبية منازل عدة تنقلت فيها أسرته بعد وفاته.. كانت أزمة ألمانيا وحتى القوات الأمريكية التى دخلت ألمانيا بعد الحرب.. فى الحصول على هذه المخطوطات.. ومنها رسائله إلى زوجته.. والتى كانت أيضا نوعا من الوثائق التى حملت كثيرا من التفاصيل المهمة.. عن سنواته فى صحراء شمال إفريقيا.. تلك الرسائل أخذتها القوات الأمريكية إلى واشنطن.. لكن ابنه استعادها بعدها بسنوات.. باعتبارها رسائل خاصة من رجل لزوجته.. يوميات «روميل» فى هذه السنوات شىء.. مذهل عسكريا وإنسانيا.. وهو ما قاله بعدها بسنوات قرينه «مونتجمرى».. مواليد نفس البرج «العقرب».. الذى توفى بعده باثنين وثلاثين عاما.. فى سن 89!

6

استوقفنى خبر منشور عن فرقة إسترالية موسيقية محلية.. جاءت لزيارة مقابر العلمين عام 2005.. تابعت التفاصيل عن قرب.. جاءت الفرقة على نفقتها الخاصة.. قاطعة آلاف الأميال للعزف 45 دقيقة فقط.. مقطوعة موسيقية تسمى «الموتى».. تحية للجنود الأسكتلنديين الذى ماتوا فى معركة «العلمين ودفنوا فى مقابر الكومنولث بها.. 21 عازفا.. للقرب والدرامز.. وصلوا القاهرة.. فتحركوا منها فجرا لزيارة مقابر الجنود.. وإحياء ذكراهم.. عندما وصلوا العلمين.. قاموا بارتداء الزى الاسكتلندى المميز.. عزفوا 45 دقيقة وسط صمت عدد كبير من الزائرين.. ثم غيروا ملابسهم عائدين للقاهرة مرة أخرى.. ومنها إلى بلدهم دون ضجيج أو دعاية.. هذه الفرقة تعزف فى أستراليا أو أسكتلندا فقط.. وكانت تلك المرة الأولى التى يعزفون

فيها فى الخارج.. توقفت مندهشة أمام المعنى الذى تحمله هذه الزيارة.. بعد 60 عاما.. جاءوا من آخر العالم لوضع زهرة على مقبرة جندى.. عدد الجنود الأستراليين الذين ماتوا فى هذه الحرب.. وكان المخطط للفرقة زيارة المقابر فى ليبيا ومصر .. لكنهم فشلوا فى دخول ليبيا.. فزاروا العلمين للمرة الأولى ثم رحلوا.. عزفوا نغمة عالمية معروفة تسمى «العلمين».. وغنوا أغنية جنائزية معروفة أيضا.. تقول كلماتها: «نم يا عزيزى نم».. النغمة والأغنية خاصة بموتى العلمين.. أما اسم الفرقة فقد كان مثيرا بالنسبة لى.. «فئران طبرق».. ولهذا قصة.. فى أثناء الحرب بثت الإذاعة الألمانية حديثا لأحد اللوردات.. الذى يقال أنه كان جاسوسا ألمانيا.. قال فيه: «على الأستراليين الموجودين فى طبرق أن يستسلموا.. لأنهم كالفئران فى الجحور».. ومن هنا كانت التسمية.. فقد كان 15 ألف جندى أسترالى يحاربون فى «طبرق»..

٦

وقفت أتطلع لكل هذه المساحات الشاسعة من الصحراء.. التى يطلقون عليها «أرض الشيطان».. تلك الأرض المصرية التى يختبىء فى باطنها 25 مليون لغم تقريبا.. تلك التى زرعتها القوات الإيطالية والألمانية والبريطانية.. أثناء الحرب العالمية الثانية.. قامت القوات المسلحة المصرية بتطهير 3 مليون لغم منها.. فالتكلفة شديدة الارتفاع.. إزالة اللغم الواحد تحتاج ألف دولار أمريكى.. «روميل» نفسه زرع الألغام فى جميع المناطق التى انسحبت منها قواته.. لاسيما فى العلمين.. ألغام مزروعة على أعماق مختلفة.. لو تم رفع لغم انفجر الثانى.. وإذا رفع الثانى.. انفجر الثالث.. وهكذا.. وعلى مدار

أكثر من 60 عاما راح ضحية انفجار هذه الألغام آلاف المواطنين المصريين.. فكرت طويلا فى اقتراح تقدمت به محافظة مطروح.. طرح 639 ألف فدان تحتوى 17 مليون لغم للمستثمرين.. يقومون بتطهيرها تحت إشراف القوات المسلحة.. ثم يحدد سعرها عن طريق هيئة حكومية تشارك فيها كافة الجهات المعنية.. يبدو ظاهريا من الطرح.. الرغبة فى الاستثمار.. لكن التدقيق فيه يعنى أنه طرح لن يتقدم خطوة واحدة للأمام.. فإذا كانت الرغبة جادة فى الطرح والاستثمار.. يجب أن تمنح هذه الأرض مجانا للمستثمرين مقابل تطهيرها من الألغام.. فقد مضت 60 عاما على هذه الصحراء الخطرة.. وأطروحات من هذا النوع قد تبقيها 60 عاما أخرى دون تقدم خطوة للأمام.. ضحاياها طبقا للسجلات الرسمية 8400 مصاب.. من المدنيين معظمهم أطفال.. بين قتيل ومصاب.. واعتقادى أن الرقم يفوق ذلك كثيرا.. فعملية الرصد بدأت فقط من 20 عاما.. تجميد الاستفادة من المياه الجوفية الصالحة للشرب.. وتعطيل زيادة 30٪ من المساحة المزروعة فى مصر.. بتعطيل الأراضى الخصبة التى تبلغ مساحتها - بحسب الأمم لمتحدة - حوالى 850 ألف فدان.. بينما قدرها الخبير الجيولوجى الدولى د. رشدى سعيد بمليونى فدان.. يمكن زراعتها فورا على مياه الأمطار والمياه الجوفية.. والتى كانت تمثل سلة الغذاء عصر الإمبراطورية الرومانية لمصر كلها.. هالنى كل تلك النباتات التى تخرج من الأرض.. «أرض الشيطان» ولما سألت عن أنواعها عرفت.. 430 نباتا وعشبا بعضها شديد الندرة عالميا.. عشرات الزواحف والحيوانات البرية المعرضة للانقراض.. بعضها من الفصائل النادرة والمصنفة من المحميات دوليا.. هذا بخلاف كميات وفيرة من المعادن: النحاس والفوسفات والفضة والذهب.. والبترول.. هذه المعادن التى لا تحتاج إنفاقا عاليا لاستثمارها..

8

ولما كنت أفكر فى كل هذا.. خطرت ببالى الوثيقة الثالثة من اتفاقية جنيف.. وموادها من 27 وحتى 32.. والتى تنص على أن الدول المنتصرة والمهزومة مسؤولة عن تطهير أرض المعارك والحفاظ على المدنيين والموارد الطبيعية وترك الأرض نظيفة.. والتى تعرفها جيدا تلك الدول.. ولم تكن الحملة الخفية التى انضمت إليها ألمانيا العام الماضى.. إلا محاولة لذر الرماد فى العيون.. وانتباه حقيقى منا للسعى وراء هذا الحق.. حق مصر على هذه الدول فى تطهير أرضها.. ألمانيا التى شاركت بمنحة قدرها 740 ألف دولار قابلة للتجديد.. وبريطانيا التى قدمت 471 ألف دولار مضافا إليها 29 الفا من سفارتها فى القاهرة.. تعلمان جيدا أن هذا لا يكفى.. وتعلمان أيضا أن تحريك الأمر فى اتجاه المجتمع الدولى.. عبر منظمات المجتمع المدنى.. ستكون فاتورته باهظة.. يبقى فقط أن نعلم نحن.. أنها خطوة مطلوبة بسرعة.. وأن عدم توقيع مصر على اتفاقية «أوتوا» لمكافحة الألغام.. لا يعد شرطا لقيام تلك الدول بتطهير الأرض التى قامت بتلغيمها.. وفى رأيى أنها حملة سوف يشكل فيها أقارب وعائلات الجنود الراقدون فى أرض العلمين.. خط دفاع مهم جدا داخل أوطانهم.. لأنهم يدركون جيدا معنى الحياة.

التاسعة

شارع محمد على

«تاريخ له صوت الموسيقى»

عندما تقول شارع محمد على.. فإنك تستدعى لذهن السامع.. الطرب والموسيقى وحياة العوالم فى بر مصر المحروسة.. وعندما تقول شارع القلعة.. فإنك أيضا تستدعى للأذهان سيرة الرجل الذى بنى مصر الحديثة.. أحببته أو كرهته.. فتلك حقيقة.. محمد على باشا.. وفى هذا الشارع الذى يربط العتبة بمنطقة القلعة حكايات وأخرى.. فيه صناعة الموبيليا.. وفيه الطرب والفن.. وفيه عبق مصر القديمة.. فيه بشر وفيه تاريخ وفيه قطعة من روح مصر.. عشت قريبة منه لفترة طويلة.. وزرته مرارا بحكم عملى.. أحقق موضوعات.. وأجرى حوارات.. وتبقى رائحته عزيزة على النفس. محتفظة بروح كل من عبروه فى كل وقت..

1

عندما أبدأ مسيرتى من بداية الشارع.. من منطقة العتبة الخضراء.. لا أحصى عدد الخطوات.. ولا مشقة السير صعودا.. حتى أنتهى إلى جامع السلطان حسن.. نهاية الشارع.. تخطف عينى دائما.. ومهما كثرت مرات عبور الشارع.. تلك اللوحات المتتالية.. التى قد تبدو غير متجانسة.. لمهن وصناعات.. متابعدة فى الشكل والروح والتفاصيل.. تبدأ سلسلة اللوحات بمحال صناعة الآلات الموسيقية.. ثم بيع الأجهزة الكهربية.. ثم صناعة الأثاث.. وبينها تتنوع طرز المقاهى الشعبية.. التى يجمعها شكل واحد أجادت جميعها توظيفه واستخدامه.. وتشويهه إن جاز القول.. «البواكى».. ذاك اللون المعمارى الذى يميز شوارع مختلفة فى مصر المحروسة كلها.. ليس فقط القاهرة..

تاريخ إنشاء الشارع وتمهيده يرجع إلى العام 1863.. فى إطار خطة الخديوى «إسماعيل» لتجميل مصر كلها.. اجتهد المهندسون الإيطاليون والفرنسيون الذين قدموا من أوطانهم فى تصميم عمارته.. فكانت الطرز المعمارية الباروكية والبواكى.. هى أبرز ما ميز العمارة وقتها.. وكان هذا أمرا جاذبا فى ذاك الوقت.. ظل هؤلاء يعملون فى هذه المنطقة 9 سنوات كاملة.. حتى افتتحه الخديوى «إسماعيل» عام 1872.. رابطا بين باب الحديد والقلعة.. بعدها بثلاث سنوات قام بشق شارع «كلوت بك».. فى عام 1875.. وللحق فإن الخديوى «إسماعيل» لم يبدأ العمل على هذا الشارع من الصفر.. فقد سبقه «محمد على باشا» فخطا الخطوة الأولى.. التى نقلت شوارع مصر من مناطق متربة غير ممهدة.. مهملة النظافة.. مظلمة.. غير مكترث بها.. إلى شوارع يتم

كنسها ورشها بالماء يوميا.. أضاءها بقناديل الزيت على أبواب البيوت.. ردم البرك المنتشرة بالقاهرة.. قام بترقيم المنازل.. ولم تكن من قبل.. وأسس عام 1843 مجلس للإشراف على تجميل ونظافة القاهرة.. فكانت أول بذرة لرعاية النظافة فى التاريخ الحديث.. وهو ما يحيلنى إلى التفكير فى الفشل الذريع لهيئة نظافة وتجميل القاهرة.. التابعة للمحافظة الآن.. فى السيطرة على كل التشويه الذى يحدث للعاصمة.. ليس فقط فيما يتعلق بالنظافة.. لكن أيضا فى التجميل.. شارع القلعة أو محمد على.. نموذج صارخ لهذا التشويه.. ورحم الله عبد الحليم حافظ.. وفريق فيلم «شارع الحب».. الذين رفعوا القبعة تقديرا لشارع الفن!

2

عندما كتب الأديب «يوسف السباعى» قصة وحوار «شارع الحب».. كان مدركا قيمة الشارع الذى أثرى الفن المصرى بالكثير من المبدعين.. وعندما كتب الرائع العبقرى «عز الدين ذو الفقار» سيناريو الفيلم وقام بإخراجه.. كان يشاركه هذا التقدير.. وعندما خرج علينا فريق العمل كله بهذه الروح التى مازالت حية منذ عام 1958 وحتى الآن.. كانوا يترجمون بصدق.. مشاعرهم التى عاشوا بها أجواء الشارع فى ذلك الوقت.. شارع محمد على.. ليس شارعا للعوالم بالمفهوم الردىء أو المسطح أو التجارى للكلمة.. هو شارع للفن بكل قدرة الكلمة على الاتساع.. لاستيعاب أكبر عدد ممكن من المعانى النبيلة.. الشارع الذى تستقر فيه الآن الفرق البسيطة.. التى تقوم بإحياء الأفراح الشعبية.. والذى تنتشر حتى منتصفه على الجانبين.. محلات

بيع الآلات الموسيقية.. وبعكس ما جسد الفنان «عبد السلام النابلسى» كانت فرقة «حسب الله»..

الفرقة الموسيقية الشعبية التى تأسست عام 1860 على يد الشاويش «حسب الله».. تعرضت هذه الفرقة العريقة الى التهميش.. والتعالى من وجهة نظر بعض المثقفين العرب.. فهى من أقدم الفرق المصرية التى قدمت ألحانا شرقية بآلات غربية.. أو نحاسية.. وهى جزء من التراث الشرقى المنسى والمهمل.. حفلات هذه الفرقة كانت تقدم للخديوى «عباس».. ثم الملك «فؤاد» .. ومن بعده «فاروق».. والشخصيات المهمة فى المجتمع المصرى فى ذلك الوقت.. قدمت عروضها فى انجلترا وفرنسا وأسبانيا.. وكان أفرادها يرتدون الزى الرسمى للجيش الانجليزى بلونه الأحمر.. كان عازفوها ممتازين.. وكانت مطلبا رئيسيا فى حفلات الزفاف والمناسبات المختلفة.. بحيث لم تكن قادرة على الوفاء بكل الحفلات.. فلجأت إلى تقسيم الفرقة بإرسال 3 أو 4 عازفين حقيقيين ممتازين إلى فرح ما.. يصحبهم عازفون آخرون من متوسطى القيمة الفنية.. يرتدون ثياب العازفين دون أداء.. فقط لإكمال العدد.. وباقى الفرقة يتم إرسالهم إلى فرح آخر.. حتى لا تفقد الفرقة مريديها.. وفرقة «حسب الله» واحدة من الفرق النادرة.. التى كانت شاهدة على أحداث تاريخية بارزة فى مصر.. وصفتها صحف فرنسية بأنها أقدم فرقة فى الشرق الأوسط من هذا النوع.. مازالت على حالها منذ تأسيسها.. تضم 11 عازفا على الآلات النحاسية والطبل المحلى والنقرزان.. «عزت الفيومى» رئيس الفرقة الآن.. وهو حفيد «حسب الله».. يتحسر على الزمن الذى ولى.. والغزو الذى حل بهذا اللون عبر مرتزقة.. يتجول فى الشوارع عندما يلمحون علامات فرح شعبى.. بينما تكتفى الفرقة الأصل بالمشاركة من وقت لآخر

فى مهرجانات عربية أو شعبية.. ترتدى اللون الأحمر أو الأزرق أو الأخضر بحسب طلب «الزبون».. ويتقاضى الفرد فيها 60 جنيها تقريبا عن كل حفلة.. ويختلف عدد أفرادها من حفلة إلى أخرى.. ما تبقى من أفراد الفرقة يذكرون للشاويش «حسب الله» أنه كان متأنق الملبس.. أزرار سترته كانت من الذهب الخالص.. شاركت فى العديد من الأفلام السينمائية.. «بمبة كشر».. و «بلية ودماغه العالية».. ومازالت تحافظ على طقوس بعينها.. فتصطحب العريس من منزله الى مكان زفافه.. أفراد الفرقة صاروا من كبار السن.. وأبنائهم اتجهوا لمهن أخرى بعيدا عن الغناء.. ومن القرن التاسع عشر إلى القرن الرابع عشر.. مسجد «قوصيون»..

3

فى منتصف شارع «محمد على».. يعرفه العامة باسم «قيسون».. مطلا على الشارع الذى يضيق يوما بعد يوم.. ومواجها لصيدلية حملت اسمه.. فأصبحت أكثر شهرة منه.. عمر هذا المسجد يعود لعام 1330.. بناه الأمير «سيف الدين قوصون».. الذى تقلد نيابة السلطنة فى مصر فى عهد الأشرف «علاء الدين كجك».. بن «الناصر محمد بن قلاوون» .. على مقربة من الجامع.. خلف مسجد السلطان حسن.. توجد بقايا قصره الذى عاش فيه.. المدهش أن هذا المسجد كان قصرا لأحد الأمراء.. قام الأمير «قوصون» بهدمه وبناء المسجد مكانه.. وافتتحه الملك «الناصر محمد بن قلاوون».. ولكن ما يحاك فى القصور الملكية قد يصعب أحيانا على الفهم.. فقد حلت اللعنة على الأمير فتم إلقاء القبض عليه.. ومات فى محبسه بعدها بعشر سنوات.. ويبدو أن هذا كان له تأثير على منشآته.. فوصلت إلينا مشوهة.. وقد تعرض المسجد للخراب بعد شق شارع «محمد

على».. فى القرن التاسع عشر.. أى بعد إنشائه بخمسة قرون.. حيث نزعت منه المئذنة والساقية.. ولكن بعد 20 عاما أعيدت عمارته مرة أخرى عام 1893.. شاهدت المسجد للمرة الأولى منذ 30 عاما.. بنيانه الحجرى من الخارج والداخل.. وإيواناته الأربعة التى يتوسطها صحن مغطى بقبة خشبية ذات نقوش بديعة.. تعلو محرابه قبة ويجاوره منبر من الخشب المجمع.. لكن التصميم والتفاصيل المعمارية لاتمت بأى صلة للمسجد القديم.. اللهم إلا الباب البحرى المميز بالبساطة رغم ضخامته.. كذلك بعض بقايا الزخارف والشبابيك الجصية.. وأحد الأبواب الجانبية الفخمة من الحجر.. بأعتابه المكسوة بالرخام الملون.. روى الجبرتى أن إحدى مئذنتيه قد سقطت عام 1801.. وقد ظن وقتها أن هذا بفعل بارود الفرنسيين! وكان وجود مئذنتين لأى مسجد وقتها مؤشرا على كبر حجمه وفخامته.. قبل تخريب المسجد فى طبعته الأولى.. شاهده المهندس الأوروبى «بريس دافين» ووصفه فى كتابه الذى نشر عام 1877.. بأن تخطيطه كان مربعا وأن أعمدته تحمل عقودا مدببة.. تعلو محرابه قبة ذات تصميم جميل أما منبره فقد كان تحفة فنية.. أما الذى بنى فى عهدهم.. فلم يدركوا كل هذا.. وهدموه غضبا على من أنشأه!

4

الهدم ليس فلسفة مصرية.. أبدا.. منذ عهد الفراعنة المصريين وحتى الآن.. العقلية المصرية عقلية بناء بالفطرة.. ومع ما تعرض له شارع «محمد على».. على مر تاريخه من هدم.. كان البناء هو الأبقى دائما.. ففى هذا الشارع ظل أمهر البنائين.. فى حى «المناصرة».. صناعة الأثاث اليدوية.. أمهر الصناع

والحرفيين.. «سكة المناصرة».. هذا هو اسمها القديم الذى ظلت محتفظة به.. نسبة إلى الخليفة «المنصور بالله» والد «المعز لدين الله» الفاطمى.. أما تاريخها فيعود إلى القرن العاشر الميلادى.. حيث أنشئت عام 971.. دخلت «سكة المناصرة» مرات.. ولم أشتر منها من قبل.. رغم غرامى بقطعها الرائعة.. أنت فى «المناصرة».. فأنت داخل متحف للفنون اليدوية.. وسط دروب قاهرة المعز الملتوية الضيقة.. فى منتصف شارع «محمد على».. تسير على أرض القاهرة القديمة.. ببلاطها الحجرى المميز.. تشق طريقا صعبا وسط عشرات الورش.. وآلاف العمال وقطع الموبيليا المتنوعة.. التى تفترش كل شبر.. تلك المدرسة الأم التى تخرج منها أمهر صناع الأثاث المصريين.. «المنجدين» و «الأويمجية» و «المذهباتية» و «الأوسترجية» و «الكورسجية».. وهى مهن لن تندثر فى بر مصر المحروسة..

«الكورسجى» هو النجار الذى يقوم بتقطيع الأخشاب وتفصيلها.. حسب الموديلات المختلفة للأطقم والحجرات أو بحسب رغبة العميل.. «الأويمجى» هو الذى يقوم بوضع وتصميم التشكيلات الفنية المحفورة على الخشب.. والتى يتحدد وفقها السعر النهائى للأثاث.. أما «المدهباتى» و «الأوسترجى» فهو الذى يتسلم الأثاث كخشب أبيض ثم يقوم بدهانها.. إما بالأوستر وهو الأرخص أو الذهبى.. تلك الصناعة التى تسجل المرتبة الثانية فى الإتقان فى مصر بعد دمياط.. يرى أهلها فى المناصرة أن هذا إجحاف لحقهم.. فيرون أنفسهم رقم واحد فى منطقة الشرق الأوسط كله.. ورغم كل ما يقال عن الاتجاه للمودرن والحداثة. تبقى هذه الأنامل التى تشكل لوحات فنية رائعة.. ذات قيمة عالية فى صدر اللوحة الأكبر للقيمة الحقيقية فى مصر..

5

الأنامل فى مصر تصوغ الكثير من التفاصيل.. على الحجر.. وعلى الخشب.. وعلى وجه مصر.. وأحد التفاصيل التى تصوغها هذه الأنامل.. تفصيلة فرعونية بالأساس.. «العود».. أحد علامات شارع «محمد على».. فكثيرة المحال التى تبيع الآلات الموسيقية.. لكن تبقى تلك التى تبيع ملك هذه الآلات.. ملكة.. يسمونه كبير العائلة الموسيقية.. عائلة الجيتار والمندولين.. يكسب التخت الشرقى شرعيته.. على جدران المعابد الفرعونية فى طيبة القديمة.. كان ملكا.. آلة العود الفرعونية مازالت موجودة حتى الآن فى متحف برلين.. وفى مصر الحديثة.. كان جواز السفر لكل فنان يحترم شرقيته.. الأب الروحى لمواليد حملت أسماء أخرى.. البزق، الجيتار، المندولين.. الحاج «حسين العواد».. أقدم صناع العود فى شارع «محمد على».. لأكثر من خمسين عاما.. عائلته تعمل فى هذه المهنة منذ عام 1906.. بدأ والده وهو من أصل سورى فى شارع «محمد على».. فيما يشبه المدرسة.. بتعليم بعض الشباب هذه الصنعة.. كان يعمل هذه المهنة فى حلب.. حيث كانت صناعة مزدهرة هناك.. ثم هاجر إلى مصر.. تردد على محله أساطين الفن فى العالم العربى.. «سيد درويش» و «محمد عبدالوهاب» و «فريد الأطرش» و «أم كلثوم» و «رياض السنباطى» و «كارم محمود» و «محمد العزبى» و «صالح عبد الحى» و «محمد رشدى» وحتى «أحمد عدوية».. وحتى الآن مازال المحل.. ومحال أخرى فى الشارع قبلة الفنانين العرب.. وطلبة معاهد الموسيقة العربية.. الغرام بالعود.. حتما يدفع للتساؤل حول طريقة صناعته.. والفروق التى تميز

ورشة من أخرى.. وصانع من آخر.. والمتردد – مثلى – على هذا الشارع.. يجد استجابة من أصحاب المحال.. ذوى الوجوه الباسمة فى شرح كل التفاصيل.. العود يصنع من الخشب «الأرو « أو «الزان» أو «الجوز».. وبعض أو كثير من الصدف للزخرفة والتجميل.. «القصعة».. ذاك الجزء الذى يحتضنه العازف أبدا.. فيخرج من دفء هذا الاحتضان الكثير من المشاعر التى تترجم لموسيقى.. صندوق بيضاوى نصف كمثرى.. مغطى وجهه بغطاء من الخشب الخفيف.. أما «الرقبة».. التى تضمها يد العازف اليسرى.. والتى تشد عليها أوتار القلوب.. الخمسة أو السبعة أو الثمانية.. «الدساتين» وتلك كلمة فارسية مفردها «دستان».. تلك العلامات التى تحدد مواضع الإمساك بقوة الأصابع على الرقبة.. السبابة والوسطى والخنصر والبنصر.. تبصم فتنغم فتقول الكثير من الأشياء.. عملية حسابية دقيقة فى هذه «الدساتين» لتحديد نسب أصوات السلم الموسيقي بعضها إلى بعض.. ثم المفاتيح وعددها 12 والتى تثبت فى الرقبة.. فالريشة وتصنع دائما من أقدام النسر.. صانع العود فنان.. يتخيل شكل العود وزخرفته ويضع له رسما يشبه «الباترون» فى فن التفصيل.. قبل أن يبدأ التنفيذ.. الفنانون المحترفون يفضلون خشب الجوز.. فلهم خبرة فى استخدامه.. هو الأخف وزنا والأجود نغمة.. أماالهواة فيفضلون الأرو لقوته واحتماله.. ويتراوح ثمنه بين 800 و8 آلاف جنيه.. عود فريد الأطرش فى أغنية الربيع تكلف وقتها 4 آلاف جنيه.. وقت أن كان الجنيه يساوى مائة الآن.. صممه المبدع «جميل جورجى».. أشهر صانعى العود فى شارع «محمد على».. عمل عليه 6 أشهر كاملة..

الموسيقار «عبدالوهاب» امتلك 200 عودا على الأقل.. أغلبها مصنوع فى تركيا.. كانت تأتيه كهدايا من الصناع.. الذين كانوا يتسابقون فى ذلك كدعاية

لهم.. وكان عبدالوهاب يرسل للصانع صورته مع العود الذى صنعه وكان الصانع يعلقها فى محله أو ورشته..

6

كل هؤلاء المترددين على شارع «محمد على» من ذوى العيون الملونة والشعر الأشقر والبشرة البيضاء.. من مختلف بقاع العالم أوروبا وأمريكا.. يفحصون أعوادا مختلفة.. ويسألون فى تفاصيل فنية خاصة بالصناعة.. يثيرون دائما دهشة المصريين.. وكثير منهم لا يعرفون أن العود الشرقى.. انتقل إلى إنجلترا فى أواخر القرن الخامس عشر.. وظهر به «أنتونى هولبورن» أمهر عازفى العود فى إنجلترا.. وفى إسبانيا ظل بارزا فى موسيقاها منذ القرن السادس عشر وحتى الآن.. واهتم الموسيقيون الألمان جدا بتوظيف آلة العود فى ألحانهم.. ومقطوعات الموسيقى الألمانى الشهير «باخ» وثيقة مهمة فى العزف على تلك الآلة الرائعة.

العاشرة

عابر سبيل «أم عباس»!

عندما كانت تتردد على مسامعى عبارات من نوع: «سوف نذهب لسبيل أم عباس».. أو «سوف ألقاك عند سبيل أم عباس».. أو ما شابه من عبارات.. كنت أعتقد – صغيرة لم تكمل الثامنة – أن أم عباس هذه امرأة حية.. أو صديقة اللاتى يتحدثن أو قريبة لهن أو ما شابه.. ناهيك عن عدم فهمى بالمرة لكلمة «سبيل».. فكانت العبارة مجتمعة الكلمات توحى لى بأنه مكان للتسابق.. أو الجلوس واحتساء المشروبات.. أو غير ذلك من المعانى المشابهة.. وبعد سنوات.. كنت أضحك من نفسى كثيرا عندما أتذكر.. هذا الهراء.. وأصبحت من عشاق تلك المنطقة ومن المداومين على الذهاب إليها..

1

بين منطقتى الصليبة والحلمية القديمة.. وقريبا من السيدة زينب.. بنى هذا السبيل فى عهد الخديوى «عباس» حاكم مصر.. عام 1867.. وأوقفه

باسم والدته «زبيدة قادن».. ليشرب منه الناس الماء المبرد والمحلى بماء الزهر والورد.. وليأخذ المسافرون بعض الراحة والطعام منه مجانا.. كتب خطوطه وعباراته بخط الثلث.. وأبدع الخطاط التركى «عبد الله بك زهدى».. وكان الخديوى قد استقدمه إلى القاهرة.. وعهد إليه بكتابة الخط على جدران هذا السبيل وجامع «الرفاعى» على مقربة بحى القلعة.. وكان سلاطين المماليك هم أول من اهتم ببناء الأسبلة.. وأولوها عنايتهم.. وأوقفوا عليها الأوقاف الواسعة.. نصت وثائق الأوقاف فى معظمها على أن يكون الماء عذبا ومن النيل.. وأن يتوفر الماء طوال العام صيفا وشتاء.. وهى مسئولية «المزملاتى».. وهى وظيفة من يحصل عليها يجب أن يجتاز عدة شروط بحسب كتب الحسبة ووثائق الأوقاف.. أن يكون نظيفا، جميل الهيئة، سليم البدن من العلل والأمراض المعدية، خاليا من العاهات، موضع ثقة.. وأن يعامل الناس بالحسنى، والرفق، ليكون سببا فى إدخال الراحة على الواردين والقاصدين السبيل، كذلك يتولى نظافة السبيل، والعناية بالأدوات اللازمة له، مثل الكيزان، وأوعية الشرب، وأدوات التنظيف، نفس العناية الموجهة لتسبيل المياه، كانت أيضا تحيط بالأدوات المستخدمة، مثل الليف اللازم للتنظيف، والمكانس، دلاء الجلد، وأوانى الشرب، والأسطال النحاسية، والأباريق، وقلل الفخار، والسفنج، وفوط المسح، وخصص أصحاب الأسبلة أماكن لحفظ هذه الأدوات، تعرف باسم «الخوستان» أى الخزانة الخشبية.. يزود «المزملاتى» الأسبلة بالمياه طوال ساعات النهار.. عدا رمضان.. يبدأ بعد الغروب إلى ما بعد صلاة التراويح..

والأمر لا يقتصر هنا على البشر فقط.. فقد عرف العصر المملوكى أيضا كثيرا من الأحواض الموقوفة.. سبيلا لله لشرب الدواب..

2

فى «مرج دابق» شمال حلب.. انتهى الزمن المملوكى.. هزم الجيش المصرى.. وقتل السلطان «قنصوة الغورى».. بدأ الزمن العثمانى.. وطالت تغييراته القاهرة.. فى مناح شتى فى الحياة.. ظهر الطابع العثمانى فى العمارة.. المختلف تماما عن نظيره المملوكى المصرى.. بمآذن المساجد النحيلة الخالية من أى زخرف.. والعمارة البسيطة الخالية من الإبداع.. ولكن بقى اهتمام بعض الأمراء بأعمال الخير.. فاستمر بناء الأسبلة بعد عام ١٥١٧.. لأنها ضرورة لاستمرار الحياة فى المدينة.. ولكن بعض التغيير لحق بعمارتها أيضا.. فقد كانت فى العصر المملوكى ملحقة بالمساجد أو تشغل ركنا منها.. فى العصر العثمانى صارت وحدة معمارية منفصلة مستقلة.. فى البداية كانت واجهة السبيل مربعة.. تزينها نوافذ نحاسية جميلة.. يمد المار يده من خلالها ليشرب الماء من حوض رخامى ناصع البياض يلى النافذة.. وكان صهريج تخزين المياه.. يوضع فى مستوى أقل من مستوى الأرض.. وفوق الجزء الأوسط المخصص لتقديم مياه الشرب يقع الكتاب.. يصعد إليه الدارسون عبر سلم.. يؤدى مباشرة إلى غرفة الدراسة الرحبة المحاطة بشرفة تتيح تجدد الهواء.. تتوسطها قطع من المشربيات الخشبية الأنيقة.. هذا النوع من الأسبلة فى بلاد الشام وفى

اسطنبول أيضا.. وقد ظل الصراع بين العصرين العثمانى والمملوكى.. واضح جدا فى بنيان الأسبلة.. طراز الأسبلة المصرى الأصيل الذى عرف فى العصر المملوكى.. وطراز الأسبلة العثمانية الوافد.. ولكن مع بداية القرن التاسع عشر.. بسطت عناصر العمارة العثمانية سطوتها.. لم يختف الطابع المصرى المملوكى.. لكنه تراجع أمام نفوذ الآخر.. فكان سبيل «أم عباس» نموذجا لهذا الصراع.. فاستدارت واجهة السبيل.. بعد أن كانت مربعة فى السابق.. وعلت نوافذه تقويسات لم تكن موجودة من قبل.. وصارت له قاعدة تلتف حوله بدرجات من الممر.. نفس هذا الطابع انطبق على سبيل «محمد على» بالنحاسين المواجه لمجموعة آثار قلاوون.. وسبيله بالعقادين المواجه لمسجد المؤيد.. لكن المدهش أن هذا الصراع بين قوتين.. احتاج أكثر من 300 عاما ليفرض سطوته كاملة.. رغم أنه يملك قوة الحكم.. وتلك هى الثقافة المصرية المتغلغلة فى كل تفاصيل الحياة.. حتى عندما بسطت سطوتها.. كان العصر كله ينبئ بالزوال!

3

عندما كانت تقودنى قدماى إلى منطقة الصليبة.. كنت أبذل جهدا بعينى للوصول إلى مكان سبيل «أم عباس».. يختفى خلف أكوام من الأوراق والمخلفات.. وخلف أصوات الباعة الجائلين.. ووجدته.. علت التشققات جدرانه.. وعلت الأتربة نافذته.. وشعرت بالإهانة البالغة التى يشعر بها هذا السبيل الذى أوقف يوما لتكريم اسم أميرة.. عنوان على الطراز العثمانى..

أنشئ منذ 142 عاما.. فى 1867.. ذا مبنى فسيح متسع.. رخامى الأرضية.. سقفه ذا نقوش مذهبة.. شبابيكه نحاسية صفراء.. تتخللها دوائر عليها آيات قرآنية.. كل هذه الفخامة والذوق.. طمست لسنوات طويلة تحت طبقات من الأتربة.. قبل أن تتم عملية ترميمه وصيانته.. فبدت واضحة مرة أخرى الخطوط المعمارية والهندسية العثمانية للسبيل.. ويعد واحدا من آخر سبيلين تم بناؤهما فى القاهرة.. أما الثانى فهو سبيل «أم حسين بك» نهاية شارع الجمهورية.. قرب ميدان رمسيس.. الذى بنى عام 1869.. بعدهما لم يبن فى القاهرة سبيل.. فقد بدأت شركة المياه تمد أنابيبها فى أحياء القاهرة.. وحل الصنبور العمومى محل السبيل.. ثم دخلت المياه فيما بعد معظم البيوت.. وصارت الأسبلة مجرد مبان أثرية.. يعانى معظمها الإهمال.. ويتعرض للسرقة.. ويستخدمها الباعة الجائلون لعرض بضاعتهم..

هذه الأسبلة أثرت بشكل واضح على كثير من الفنانين.. لا سيما الخطاطون.. فن الخط العربى الذى احتضنته مصر.. وأفسحت له المجال.. ليقدم نهضة واسعة.. فى الوقت الذى كان فيه هذا الفن.. يلقى حربا فى تركيا.. ثم صارت هناك مدرسة للخط.. افتتحها الملك «فؤاد» عام 1922.. خرجت أو دفعاتها عام 1925.. وتخرج منها رواد فن الخط العربى فى مصر فى القرن العشرين.. ومنهم الفنان «سيد إبراهيم».. الذى ولد فى حى القلعة عام 1897.. فكانت أول دروسه فى آثار هذا الحى الأثرى العريق.. تأثر بشكل خاص بخط الثلث المكتوب على «سبيل أم عباس».. كتب عناوين مجلات

وصحف مصرية مثل: الهلال والمصور والبلاغ.. وشارك فى الحياة الثقافية بتأسيس رابطة الأدب الحديث وجماعة أبوللو.. أورثته هذه الثقافة نظرات دقيقة فى الخط العربى.. وكان يرى أن الخطاط العظيم لا بد أن يكون مثقفا ملما بقواعد اللغة العربية وتراث الأمة الإسلامية عالما بأئمة هذا الفن.. وكان يدعو الخطاطين لكثرة التأمل والاطلاع على النماذج الخطية الجميلة.. توفى عام 1994 عن 96 عاما..

4

دائما كان يقال أن القاهرة مدينة الألف مأذنة.. يستأثر منها حى الخليفة بحوالى 366 مسجدا.. وأكثر من مئة مسجد جامع أثرى شهير.. ارتبط معظمها بأضرحة أولياء الله الصالحين.. الذين ينتمون إلى آل بيت النبوة.. أو من عرفوا بعد ذلك بقربهم من الله.. إذا انتقل أحدهم إلى جوار ربه.. تحول منزله إلى مقام يقصده البسطاء.. للدعاء والتشفع بصاحب المقام.. أما إذا زاد عدد المريدين والمحبين.. فيتحول المقام إلى مسجد وتكية تتسع لهؤلاء المريدين ولأحفادهم من بعدهم.. وفى الخليفة هذا أمر حيوى جدا.. ففى مساجدها دفن 4 من آل البيت: السيدة عائشة والسيدة سكينة بنت الحسين والسيدة رقية بنت الإمام على والسيدة نفيسة.. أما تلك المساجد المتناثرة هنا وهناك فى حى الخليفة.. فهى من عصور عدة.. الأيوبى والمملوكى والعثمانى والأسرة العلوية.. حتى قلعة صلاح الدين بكل عظمتها.. هى تابعة لحى الخليفة.. أما «سيدى الأربعين»

فليس ضريحا باسم شيخ.. ولكنه مسجد دفن فيه 40 شهيدا.. أثناء إحدى المعارك الحربية.. وتحول تدريجيا على ألسنة البسطاء إلى مسجد هذا الاسم..

شارع الخليفة نفسه تتفرع منه العديد من الحارات الصغيرة والضيقة.. «حارة الحسينية» أهمها.. حيث يقع بيت السيدة «نفيسة».. والذى ظل متماسكا طويلا.. لكنه انهار أثناء زلزال 1992.. يتقاطع معه شارع «الركبية» الذى سمى بهذا الاسم لأنه كان مقرا للدواب.. التى كان يستخدمها الخلفاء والملوك فى العهود المختلفة.. وفى نهاية الشارع وعند التقاطع مع شارع الصليبة.. نصل مرة أخرى لسبيل «أم عباس».. التى تجاورها مدرسة «بنباقادن».. التى تخرج منها «عادل إمام» و «نور الشريف» وغيرهم من النجوم أبناء حي الخليفة والحلمية والسيدة زينب.. وعندما يأخذنا الشارع إلى نهايته.. نكون أمام قسم شرطة الخليفة.. ومقره أيضا أحد القصور الأثرية.. آخر مرة خطت فيها أقدامى سجل مدنى قسم الخليفة.. حيث أوراقى الرسمية الأولى.. عندما كنت أطلب مستخرجا من شهادة الميلاد.. فأعطتنى إياه الموظفة.. بتاريخ ميلاد خاطىء.. كلفنى الاستغناء عن الشهادة الأصلية.. وتدبيسها فى ملفى لديهم.. مقابل منحى ما أريد من مستخرجات رسمية!

5

عندما تولى ظهرك إلى جامعى السلطان حسن والرفاعى.. متجها فى شارع الخليفة صوب حى السيدة زينب.. ثم متوقفا فى الناصية التى تسبق سبيل «أم عباس».. ومنعطفا يمينا فى شارع جانبى.. سيرا على الأقدام ما

يقرب من مائة متر.. هنا يقف قصر الأمير «طاز» شامخا.. منذ سنوات طويلة.. عبرت كثيرا هذا القصر.. وأنا أمر فى هذا الشارع.. لم ألتفت أبدا إلى أنه فى هذه البقعة.. خلف مئات الكيلو جرامات من الأتربة.. وعشرات المخلفات الورقية.. وصياح المارة والباعة الجائلين.. هناك أثر مهم بناه الأمير «سيف الدين طاز بن قطغاج» أحد أمراء المماليك البحرية.. فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر.. هذا القصر سيء الحظ.. فبعد مرور 500 عام على بنائه.. رأت الحكومة الخديوية أن تحيله إلى المعاش فحولته إلي مدرسة للبنات.. وبعد عدة سنوات قامت وزارة التربية والتعليم بإخلائه لتحويله إلى مخزن بعد أن بدا متهالكا.. لمئات الألوف من الكتب الدراسية وعشرات العربات التي تم تكهينها ومئات الأطنان من الخردة بمختلف أنواعها.. وقد زايد الأهالى على الحكومة فاستخدموه مقبرة للحيوانات النافقة! وفى 10 مارس 2002 انهار جانب كبير من الجدار الخلفى للقصر.. وهنا كان لا بد لعملية الإنقاذ التى تأخرت كثيرا أن تبدأ..

تلك المساحة التى تتجاوز 8 آلاف مترا مربعا.. التى احتلها القصر.. والتى كانت أبوابه الموصدة لا تنبىء أبدا.. بأن خلفها كل هذه المساحة.. الموزعة توزيعا متسقا.. فناء كبير فى الوسط شكل حديقة.. تتوزع حولها من الجهات الأربع مبانى القصر الرئيسية والفرعية.. أهمها جناح الحرملك والمقعد أو المبنى الرئيسى المخصص للاستقبال واللواحق والتوابع والأسطبل.. ولكن

للأسف بعد الإهانة البالغة التى عومل بها القصر لمئات السنين السابقة.. لم يتبق من هذا كله سوى الواجهتين الرئيسية المطلة على شارع السيوفية.. والخلفية المطلة على حارة الشيخ خليل.. وجزء صغير من قاعات الحرملك.. أما المدخل الرئيسى للقصر فهو عبارة عن كتلة متماسكة.. تبدأ بممر مستطيل له باب من ضلفه واحدة فى نهايته قبو.. علي جانبيه مدخلان يفتح كل منهما على فناء مستطيل هو صحن القصر.. وللقصر قاعة سفلية رئيسية تم ترميمها بالكامل.. جدرانها مغطاة بطبقة من الجص الذى يتناسب تماما مع الحجارة التى بنيت بها القاعة.. وسقف ذو زخارف هندسية ونباتية.. مزين بشريط من الكتابة تضم هذه الكلمات.. «بسم الله الرحمن الرحيم أمر بإنشاء هذا المكان المبارك السعيد من فضل الله الكريم وكل عطائه العميم المقر الأشرف العالى المولوى المخدومى الغازى المجاهدى المرابطى».. وهى كلها ألقاب كانت خاصة بالأمير «طاز».. ويتوسط هذه الكتابات رسم لكأس يرمز الى وظيفة الساقى إحدى الوظائف التى تقلدها الأمير.. عملية الترميم هذه أسفرت عن العثور على كميات ضخمة من الأخشاب والمعادن والأحجار.. التى استخدمت فى ترميم القصر بمواده الأولية الأصلية.. التى أعادت له رونقه القديم.. بنفس مكوناته الأصلية إلى حد ما..

عندما دخلت القصر بعد ترميمه.. هالنى كل تلك القطع الأثرية.. التى خضعت لعمليات المعالجة والترميم.. الأخشاب الزخرفية.. أو الأخشاب الصماء.. بألوانها البديعة.. القطع الرخامية.. والتشكيلات المعدنية.. تلك الطبقة الجيرية التى كست حوائطه.. الطبقة الجيرية التي تكسو الحوائط.. الطوب والأحجار التى بنى بها القصر قديما.. الكتابات والرسوم التي تعلو الشرائط الخشبية والكتل الحجرية.. توقفت أتفحص كل هذه التفاصيل مشدوهة.. كل قطعة من هذه القطع لها خبراؤها المتخصصين فيها.. وكل هذه الأنامل الخبيرة التى أحيت القصر.. أنامل مصرية.. ومعظمهم من خريجى قسم الترميم بكلية الآثار.. عملية الترميم تلك شديدة التعقيد والدقة.. خطواتها المتتالية والمحسوبة شديدة الإرهاق.. بالذات عندما يكون العمل يحمل كل هذه التفاصيل بالألوان.. التى تحتاج إلى تصوير ميكروسكوبى إليكترونى ماسح.. فمعرفة مدى التدهور الذى تعاني منه طبقات الألوان.. مسألة مهمة قبل بدء أى ترميم.. ثم تأتى عملية شديدة الأهمية.. شفط الأتربة العالقة بين تفاصيل الخشب والجدران بحذر شديد.. باستخدام فرش تنظيف يدوية مختلفة المقاسات.. أما الأسقف فتمت معالجتها بيولوجيا ورشها بمواد كيميائية معينة.. متعارف عليها من قبل بيوت الخبرة العالمية المتخصصة فى معالجة وترميم الآثار العالمية..

6

عام 2006.. دخلت القصر للمرة الأولى ليلا.. لفت نظرى كل الإجراءات الأمنية البادية فى الشارع من بدايته.. لكنى كنت مأخوذة بكل هذا الجمال الذى يتضاعف ليلا.. انتبهت لهذا عندما دخلت.. وجلست على مقعدى فى القاعة المفتوحة المتسعة.. المحاطة بأشجار ونباتات عدة.. كنت أجلس فى الصف الثالث.. وكان يجلس أمامى مباشرة فى الصف الأول.. «فرانسيس ريتشاردونى» الدبلوماسى الأمريكى الذى أمضى فترة من خدمته الحكومية فى مصر.. يفصل بينى وبينه صف من مرتديى الملابس الرسمية.. رغم أن الحفل لم يكن رسميا.. كان حفلا للصديق المبدع «نصير شمة».. عزفا على العود بمصاحبة فريق «بيت العود».. وكان الحفل متسقا مع المكان المقام فيه.. تلك النغمات العربية التى تمس أوتار القلوب.. أخذتنى إلى العالم الذى عاش فيه الأمير «طاز» نفسه.. أحاول تخيل تفاصيل ذلك العصر الذى مازالت آثاره باقية حتى الآن.. متأملة حال هذه الدنيا!

الحادية عشرة

«بولاق»

من نضال المستعمر.. إلى نضال العشوائية!

عندما تولى وجهك شطر شارع 26 يوليو.. منطقة بولاق.. واقفا على كوبرى أبو العلا - رحمه الله! - فأنت بين ذراعى النيل.. تستحضر القديم والجديد فى تاريخ هذه المنطقة.. المبنى الجديد لوزارة الخارجية المصرية.. التى شهدت أول إرهاصاتها فى عهد محمد على.. بانى مصر الحديثة.. وضجيج البشر وزحامهم فى ذاك السوق الضخم.. «وكالة البلح».. وسيدى السلطان أبو العلا بمسجده المتواضع.. الواقع فى حضن مبنى الخارجية.. والمبنى العتيق الذى لا يوحى بما فى داخله.. لمتحف المركبات الملكية.. حكايات البشر فى الحياة فى هذا الشارع العتيق.. أهل بولاق أصحاب ثورة القاهرة الثانية على بونابرت!

1

التوقف على كوبرى أبو العلا.. كان هواية ممتعة.. أمارسها متعمدة.. بالذهاب بنية الوقوف على الكوبرى.. متطلعة إلى النيل من إحدى دفتيه.. أو غير متعمدة.. بالتوقف قليلا طلبا للهدوء.. فى طريقى ذهابا أو عودة.. من الزمالك أو إليها.. وأحيانا كثيرة التوقف ومطالعة كل تفصيلة من هذا الكوبرى.. القطعة الفنية القيمة.. التى لم يدرك قيمتها من أخذ قرار تفكيكه.. ولا من قام بذلك.. ولا من صمت على الفعلة أيضا.. كوبرى أبو العلا الذى قيل فى فترة من الفترات أن مصممه هو الفرنسى الشهير «جوستاف إيفل» صاحب تصميم البرج الشهير بباريس.. الكوبرى جرى تأسيسه عام 1875.. ومثل هذا النوع من الكبارى المخصصة للمشاه نادر فى العالم كله.. وهو الكلام الذى تواتر وقت تفكيكه.. دون أن يسمع أحد أو يعى.. جرت مذبحة التفكيك بعد إنشاء كوبرى 15 مايو الأسمنتى.. وقيل وقتها أنه سيتحول لكوبرى لعبور المشاه.. ومعرض مفتوح تقدم فيه العروض الفنية المختلفة.. بكل أنواعها.. يصبح مرسما للتشكيليين.. تتناثر بعض الكافيتيريات فى جنباته.. فيصبح صورة من أماكن مشابهة فى فرنسا وبريطانيا وأمريكا.. لكن شيئا من هذا لم يحدث.. ولا يعرف أحد حتى الآن أين ذهبت خامات الكوبرى.. الذى يشكل كل مسمار فيه قطعة فنية!! الكوبرى الذى كان شاهدا على عصور وأحداث.. وعبرته شخصيات مصرية وغير مصرية مهمة.. يربط منطقة أبو العلا الشعبية.. بمنطقة الزمالك التى كانت أرستقراطية.. ويشكل

ما يشبه العصب الذى يربط طرفى شارع 26 يوليو.. الممتد من منطقة وسط المدينة.. وحتى الزمالك.. عندما تبدأ مسيرتك من مطلعه فى الزمالك.. عابرا فوق النيل.. متجها نحو منطقة أبو العلا.. يسلمك الكوبرى إلى مسجد السلطان أبو العلا.. الذى حملت المنطقة كلها اسمه..

2

قادتنى قدماى كثيرا.. نزولا من الكوبرى.. إلى المبنى المتواضع الذى يبدو صغيرا.. المطلى باللون الأصفر.. «مسجد سيدى السلطان أبو العلا».. الشيخ الصالح حسين أبى على المكنى بأبى العلاء.. صاحب الكرامات بحسب وصف الصوفية.. الذين أطلقوا عليه لقب «السطان».. لم يكن سلطانا ولا ملكا ولا أميرا.. لكنه كان سلطانا للمتصوفة.. سكن هذا الشيخ خلوة بزاوية.. بالقرب من النيل فى القرن الخامس عشر .. كثر مريدوه وكان منهم التاجر الكبير الخواجة نور الدين على محمد بن القنيش البرلسى.. الذى أنشأ له هذا المسجد على مساحة 843 مترا.. تعبد فيه ثم دفن عندما توفى عام 1486.. أنشئ المسجد عام 1485.. فكان مرآة لازدهار العمارة الإسلامية.. وقت السلطان المملوكى قايتباى.. كمدرسة ذات أربعة إيوانات متعامدة غنية بالنقوش وقتها.. منبره من الخشب المطعم بالعاج ومحرابه مكسو بالرخام..

المسجد الذى تم تجديده عدة مرات.. ضم رفات علماء آخرين غير صاحبه.. الشيوخ أحمد الكعكى وعبيد والسيد على حكشة ومصطفى

البولاقى.. ثم قامت لجنة حفظ الآثار العربية بين عامى 1915 و1920م بعمليات إصلاحات شاملة له.. ثم ألحقت بواجهته البحرية سبيل يعلوه كتاب.. ثم جرت له عملية تجديد وتوسعة ثانية فى عصر الملك فؤاد عام 1936.. تكلفت 17 ألف جنيه.. فبلغت مساحته 1264 مترا.. فى هذا الوقت كان رسام الكاريكاتير المصرى الراحل بهجت عثمان.. قد بلغ الخامسة من عمره.. ولد وعاش فى حى بولاق.. فكانت شخوصه وأفكاره وروحه ترجمة لهذا الحى القديم.. الذى بدأ يأخذ لنفسه مكانا على الخريطة المصرية عام 1771.. وقت ما سمى «الطرح السابع» لنهر النيل.. حيث اكتسبت القاهرة مساحة جديدة جراء ذلك.. وصار الساحل الجديد عند بولاق.. ملتقى لتجار القمح والزيت والسكر.. وعمرت المنطقة كلها بالمدارس والمساجد.. وصارت قبلة للمراكب الشراعية القادمة من الشمال محملة بكل أنواع البضائع.. وبعدها بعشرين عاما تقريبا.. اعتمدت التسمية المعروفة الآن «بولاق».. التى حرفت من كلمتين فرنسيتين بدأتا مع الحملة الفرنسية عام 1798.. «بو» وتعنى الجميلة.. و «لاك» وتعنى البحيرة.. «بولاك» البحيرة الجميلة..

3

كبير مهندسى الطرق والكبارى «لوبيريه».. الذى كان ضمن الحملة الفرنسية.. قام فى هذا الوقت بشق وتمهيد طريق مستقيم.. تسهيلا لمرور فرق الجيش الفرنسى للوصول إلى النيل من منطقة الأزبكية.. غرس على جانبيه

الأشجار.. لكن كل ما فعله الفرنسيون.. لم يكن شفيعا لهم عند أهل بولاق.. الذين لم يشاركوا بوضوح فى ثورة القاهرة الأولى فى أكتوبر عام 1798.. لكنهم كانوا من فجر ثورة القاهرة الثانية وقادوها.. فى 20 مارس 1800.. هذا كلام «الجبرتى» و «الرافعى».. اللذين.. وصفا وصفا دقيقا يوميات معركة حقيقية.. دارت رحاها على أرض بولاق.. حتى 14 إبريل.. كان زعماء الثورة الكبار.. نقيب الأشراف عمر مكرم.. وكبير التجار أحمد المحروقى.. والشيخ الجوهرى.. فى المقدمة.. وكان فى القلب رجال حى بولاق.. الحاج مصطفى البشتيلى الذى لقب بزعيم ثورة بولاق.. وغيره من دعاة الثورة وقفوا وسط العامة.. وجاهزون بعصيهم وأسلحتهم ورماحهم.. اعتقله الفرنسيون قبل الثورة بعدة أشهر.. وكان يقوم بتخزين قدور مملوءة بالبارود فى مخازنه.. وعندما أفرجوا عنه.. ما لبث أن ألقى بنفسه فى خضم لهيب الثورة.. كانت معارك أخرى تدور رحاها فى عين شمس.. ودمياط .. حوصرت بولاق.. وتولى القيادة كليبر بعد عودة بونابرت إلى فرنسا.. الذى سارع بتوجيه إنذارات متوالية لأهل بولاق بالتسليم.. كنت أحاول تخيل مشاهد ضرب بولاق بالمدافع فى ذاك الوقت بعد رفض التسليم.. ثم أحاول تصور دخول الجنود الفرنسيين إلى حوارى بولاق بعد القصف الرهيب.. وإضرامهم النيران فى كل المنازل والمبانى والمساجد والمدارس والمتاجر.. أحاول تخيل ألسنة المياه التى تعلو.. وصراخ الأطفال الذى يصل للسماء.. وأندهش من كل الادعاءات.. بأن الحملة الفرنسية جاءت لتعليم الشعب المصرى معنى الحضارة!! عظيمهم بونابرت الذى تقرب للمسلمين فشاركهم المناسبات الدينية.. وخليفته

كليبر.. أبناء حضارة فشلت بالترويج لنفسها.. فقد كانت جثث القتلى الملقاة فى الطرقات والأزقة.. والأبنية والقصور المتفحمة جراء الحرائق.. أنهار الدماء التى تدفقت فى الطرقات.. خير دليل على حضارة ادعاء هشة.. كليبر.. رسول الحضارة رفيعة المستوى.. أرغم الأهالى بعد تدمير بولاق على دفع غرامة قدرها 200 ألف ريال – عملة ذلك الحين – ثم وشوا كذبا للأهالى بأن الحاج مصطفى البشتيلى زعيم ثورة بولاق.. كان هو السبب فى دمار المنطقة بخيانته وتسليمه الحى للفرنسيين.. ثم دفعوا به إلى الأهالى.. وطالبوهم بقتله.. فصار الأهالى – المغرر بهم – يضربونه بالعصى والنبابيت حتى مات!! ثم لم يمض شهران حتى لقي كليبر مصرعه يوم 14 يونيو 1800.. قتله سليمان الحلبى على مقربة من بولاق.. فى حديقة قصره بالأزبكية.. وقد نقل عن الحلبى.. الشاب السورى الذى جاء مصر دارسا بالأزهر.. أنه قتل كليبر بسبب ما حل ببولاق.. سبحان الله!!

4

عندما قرر «محمد على باشا» بعد سنوات.. إرسال الحملة الوهابية.. كانت بولاق طرفا فى هذا أيضا.. فقد قرر إنشاء دار لصناعة السفن «الترسانة البحرية».. على نيل هذه المنطقة.. حتى يكون لمصر أسطول قوى فى البحر الأحمر.. فأمر باستكمال شق الطريق بين «القاهرة.. وضاحية بولاق».. فمحيت آثار الحملة الفرنسية.. وتحول إلى حى صناعى راق.. فقامت فيه المصانع والمخازن ومساكن المهندسين ومدرسة صناعية كبيرة.. وأيضا عندما

قرر الخديوى إسماعيل تخطيط «القاهرة الخديوية».. فوصل التخطيط الجديد من ميدان الإسماعيلية جنوبا إلى نهاية شارعى شريف وسليمان باشا.. وهنا كان لابد من تجديد شارع بولاق.. فهذا هو بداية تعمير ضاحية بولاق.. ومن ثم ربط القاهرة الجديدة بشاطئ بولاق.. ثم جاءت الطفرة التعميرية عندما أنشىء كوبرى بولاق «أبو العلا» الذى افتتح فى عهد الخديوى عباس حلمى الثانى «حفيد إسماعيل» عام 1912.. وكان معجزة هندسية للربط بين القاهرة وجزيرة الزمالك.. أتأمل هذا الحى الآن بكل فوضاه.. وتكدسه.. وازدحامه بالبشر والبنايات والبضائع.. فأندهش لأن معظم قاطنيه لا يدركون.. أن لهذا الحى مكانة قديمة مهمة فى تاريخ مصر.. وأن أهله قديما دفعوا ثمنا باهظا فى الدفاع عن مصر.. وأن من أهله من ظلم وشوهت صورته بأيدى أهل بولاق.. وعندما تكشفت الحقيقة.. كان من الصعب أن تعود عجلات الزمن للوراء.. للتكفير عن إراقة دماء بريئة بلا جريرة سوى حب الوطن.. والمدهش أن أهل بولاق الآن مازالوا يحتفظون – فى معظمهم – بهذه الطبيعة الملتهبة.. التى يسهل استدراجها لمعركة غير مبررة.. أو لموقف حاد بلا سبب واضح.. فيشهد الشارع معارك «صوتية» كثيرا.. بين الباعة وبعضهم البعض.. أو بين أصحاب المحلات.. أو بين سكان الحى فى تلك البنايات المتهالكة.. التى تندهش كثيرا عندما تفكر – مجرد تفكير – فى كيفية تطوير الحى بإزالتها.. وتعويض أهلها بنقلهم لمنازل أخرى.. فأهل الحى يفضلون تلك البنايات المتهالكة.. التى قد تسقط فوق رؤسهم وهم نيام.. على مغادرة الحى والانتقال لأى مكان آخر.. وقد حرت فى تفسير هذا.. وفشلت فى الوصول إلى كلام مقنع بالتمسك

بالمكان.. حتى لو أفضى ذلك إلى الموت.. عن الانتقال لمكان أفضل.. حتى لو كانت فيه الحياة.. ويبدو أن الدماء التى سالت منذ أكثر من 200 عام فى هذا المكان.. مازالت تحمل لقاطنيه روحا جبارة متشبثة بجذور.. حتى لو لم يكن هذا صائبا!!

5

أمتار قليلة بجوار مسجد السلطان أبو العلا.. تقف البوابة الحديدية الجانبية للمبنى الجديد لوزارة الخارجية المصرية.. ذاك المبنى الذى يشكل خروجا عن سياق صورة الشارع العتيق.. المبنى الذى بدأ إنشائه عام 1992.. وتم الانتقال التدريجى إليه منذ عام 1996.. نموذجا للحداثة بألوانه وتصميمه وفخامته.. بعيدة تماما عن التفاصيل القديمة للمبانى المجاورة له.. يضم المبنى 34 طابقا .. آخرها مطعم للعاملين.. تم شراء أرض البنايات القديمة.. التى استقرت فى هذا الجزء من الشارع منذ عشرات السنين.. إلا واحد.. جرت عملية التفاوض مع ساكن المنازل.. وقوبلت بالرفض.. بل أنه اتجه لتسجيل منزله كأثر يحق له ولورثته استخدامه.. حتى لا يبيعه للخارجية.. وبالفعل جرت عمليات البناء مجاورة للمنزل.. ومازال موجودا فى مكانه.. بالناحية الخلفية.. مطلا على شارع جانبى مواجه لمبنى الإذاعة والتليفزيون المصرى من الخلف!!

فكرة أن تكون هناك هيئة تعنى بالشئون الخارجية.. فكرة قديمة تعود إلى النصف الأول من القرن التاسع عشر.. وبدايات محاولات بناء الدولة الحديثة فى عصر محمد على باشا.. لم تكن وقتها مؤسسة متكاملة بالمعنى الحديث للكلمة.. وإنما كانت مجرد دواوين لتنظيم علاقاته داخلياً وخارجيا.. همها الرئيسى ما يتعلق بالتجارة والمبيعات ومعاملة الأهالى.. وسميت»ديوان الأمور الأفرنكية».. ثم سميت بعد محمد على « ديوان الخارجية «.. وكان واحدا من دواوين 4 رئيسية فى الدولة.. تغيرت مهمتها لتصبح منع الرقيق ومتابعة المعاهدات الدولية والمطابع الأوروبية والمحلية.. ارتبط ذلك فى الأساس بحجم الوجود الأوروبى فى مصر فى عهد سعيد وإسماعيل.. فقد كانت حالة الانفتاح الواسع على أوروبا.. وتمتع الأوروبيون بالعديد من الامتيازات عاملا فى هذا.. وحتى نهاية القرن التاسع عشر كان هذا الديوان تحت سيطرة الأرمن.. وعندما تغير الاسم إلى «نظارة الخارجية».. كان أطول من احتل موقع ناظرها بطرس غالى باشا.. الذى ظل بها 16 عاما.. منذ 1894 وحتى 1910.. ومع قيام الحرب العالمية الثانية.. وفرض الحماية البريطانية على مصر.. ألغيت النظارة كرمز للسيادة المصرية الخارجية.. ليمثل عام 1922.. عودة الدبلوماسية المصرية بشكلها الحديث.. وبدأت البعثات الدبلوماسية للخارج.. وكان أول وزير خارجية وضع اللبنة الاولى لهيكلها التنظيمى أحمد حشمت باشا.. الذى تولاها عام 1923.. وكان قصر البستان بباب اللوق بالقاهرة.. المملوك للملك فؤاد.. أول مقر رسمى للوزارة فى العصر الحديث.. 86 عاما فى عمر الزمان.. و2 كيلو مترا تقريبا.. شكلت الفاصل بين

أول المقار.. وآخرها فى حى بولاق.. وما بين المسافة والزمن.. تبقى السياسة الخارجية المصرية ترجمة لعمر الدولة المصرية ثقيلة العيار!!

6

وفى مواجهة بوابة المبنى الجديد للوزارة.. تحتل «وكالة البلح» أشهر مناطق البيع فى القاهرة.. بيع أى شىء وكل شىء.. تحتل كل شىء أيضا.. نهر الطريق الرئيسى لشارع 26 يوليو.. والطرقات الجانبية.. وأرصفة الشاعر الرئيسى والشوارع الجانبية.. وواجهات المنازل.. وكل شىء.. المبنى الوحيد التى لا يقترب منه تجار «وكالة البلح» هو مبنى الخارجية.. يعود عمر تلك «الوكالة» إلى الاحتلال الإنجليزى لمصر.. حيث كانت تباع مخلفات جيشه فى مزاد سنوى.. يشتريها التجار فى صناديق مغلقة.. تضم قطع غيار ومعدات وملابس وألواح ألومنيوم وخردة..ثم يتم فرزها فى مخازنهم ثم تسعيرها ثم تباع بالتجزئة.. ومنذ هذا الوقت والوكالة كانت لها خصوصية بيع كل شىء.. عن غيرها من الأسواق فى: الغورية وسوق العصر والسبتية.. تحتل «وكالة البلح» مساحة تقدر بحوالى 120 فدانا – 4200 مترا – فى قلب حى بولاق.. التفكير.. مجرد التفكير.. فى تطوير هذه المنطقة.. مستحيل.. فهى المتنفس الوحيد – تقريبا – أمام البسطاء من المصريين لشراء كل ما يحتاجون.. وعلى مدار النهار.. وحتى وقت متأخر من الليل.. تظل المنطقة ساحة للضوضاء المتواصلة.. التى إن حاولت التفكير بهدوء فى أسبابها.. فلن تصل لشىء بالمرة..

وعلى استحياء.. وخلف بعض الملابس التى قام أصحاب المحال المجاورة للمكان بتعليقها على بابه.. يختبىء متحف المركبات الملكية.. الذى أسسه الخديوى إسماعيل.. والذى جرت له مؤخرا عملية تطوير تكلفت 25 مليون جنيه.. لا يعرف أحد إن كانت قد انتهت أم لا.. لكن ما أذكره.. استوقفنى طوال بضعة أعوام ماضية.. وأنا أعبر ذلك المبنى.. فى طريق ذهابى أو عودتى من منطقة الزمالك.. أن أعمال الترميم الخارجية كانت تتم بالأسمنت وأسياخ الحديد المسلح! والتصقت الصورة بذهنى فى انتظار رؤيته من الداخل.. بوابة المتحف صغيرة نسبيا.. لا توحى بالمرة أنه يمتد إلى الخلف على مساحة 5 أفدنة.. يضم 67 عربة ملكية.. تمثل 22 نوعا.. معظمها كانت هدايا من دول أوربية لحكام مصر .. منذ عهد الخديوى إسماعيل وحتى الملك فاروق..و أكثر من 6 آلاف قطعة ملابس تمثل تلك الخاصة بتشريفة كل عربة وفقا للبروتوكولات المعروفة وقتها.. والإكسسوارات الخاصة بالخيول .. المفترض أن يعرض كل هذا فى قاعات صممت بأرفع التقنيات.. باستخدام أنواع خاصة من الزجاج المضاد للأشعة فوق البنفسجية .. حفاظا على المقتنيات ومضادا للرصاص لزيادة التأمين ضد السرقات .. مع أفضل نظم الإضاءة للحفاظ علي درجة الحرارة المناسبة للمعروضات .. المتحف مقسم إلى حجرات للعربات وإسطبلات الخيول.. وحجرات خاصة بإعداد أطقم الخيل وورش للقطار.. وسكن لمبيت سائقى العربات ومكاتب للعاملين وحجرات للإسعاف.. يتم ربط المتحف بشبكة مراقبة متطورة .. متصلة بكاميرات حساسة يتم زرعها

فى جميع أروقة المتحف .. ترصد كافة التحركات داخله وخارجه.. كما يزود بأنظمة متطورة لمكافحة الحريق أوتوماتيكيا..

٦

قد لا تدرك للوهلة الأولى قيمة هذا الحى.. يصنفونه بالعشوائى.. وهذا صحيح.. لكن تأمله يحتاج الكثير من التركيز.. فى كل الأحداث والبشر الذين عبروه.. عندما أمر به.. تشتعل رأسى فى محاولة تخيل شكله القديم.. بقصوره الفخمة.. وطرقاته المعبدة.. والأشجار الرائعة التى تصطف على جانبيه.. أحاول تخيل بشره الذين عاشوا فيه منذ قرون.. أثريائه وثواره ومواطنيه البسطاء.. الذين قد يعتقد البعض أن زمنهم ولى.. لكنى أشعر أرواحهم باقية دائما على أرضه.. فبناياته تتبدل كثيرا.. وتلك هى الدنيا!!

الثانية عشرة

قصر البارون

حكاية مريام وهيلانة!

قصر الأشباح.. أو قصر الرعب.. فى قلب ضاحية مصر الجديدة بالقاهرة.. فى طريق المغادر مصر متجها للمطار.. يشرف فى صمت على شارع العروبة وابن بطوطة وحسن صادق.. تعبره فتخطف عينيك فخامته.. وطرازه الغريب المختلف عن كل القصور الموجودة فى مصر.. على مر العصور.. على تلك الربوة العالية.. تحيطه الأساطير والقصص الخيالية.. وتبقى حقيقته غير معروفة بالنسبة للكثيرين..

1

التجول حول القصر كان متعة للكثيرين.. بغموضه وطريقة بنائه التى تبعث على الرهبة.. فى ثمانينات القرن الماضى.. كان الظلام الذى يحيطه..

أحد علامات ذلك الغموض.. وكانت أشجاره الكثيفة غير المهذبة.. تستفز العابرين إلى التطلع إلى الداخل.. فى محاولة لاكتشاف أى شىء غير عادى.. توحى به هذه الصورة الغامضة.. البارون البلجيكى «إدوارد لويس جوزيف امبان».. عندما شيد هذا القصر.. لم يكن يقصد أبدا أن يكون غامضا أو مثيرا للرعب.. كان هدفه أن يكون فريدا دافئا شرقيا.. البارون الذى ولد فى 20 سبتمبر عام 1852.. ينتمى إلى برج العذراء بصفاته الرومانسية الناعمة.. متأثرا ببرج الميزان بعقلانيته وثباته وعمق تفكيره.. جاء إلى مصر فى نهاية القرن التاسع عشر.. قادما من الهند.. متشبعا بتفاصيل فنية عديدة مرتبطة بالحياة فيها.. بناياتها الخاصة.. والغموض الساحر لهذه البنايات.. التى تشع فخامة شرقية تختلف تماما عما اعتادته عيناه فى وطنه.. هبط البارون مصر بعد فترة وجيزة من افتتاح قناة السويس.. وما صاحبها من احتفالات ضخمة.. وحالة انتعاش حضارية ثقافية فنية واضحة.. بانفتاح مصر على العالم الأوروبى.. وانتباه هذا العالم لمكان ومكانة وقيمة مصر.. قرر البارون البقاء فى مصر.. فاختار منطقة صحراوية – وقتها – مرتفعة على ربوة.. بين القاهرة والسويس.. لتشييد مكان إقامته.. أعجبه تصميما لمهندس فرنسى «ألكسندر مارسيل».. فى أحد المعارض الهندسية بباريس عام 1905.. كان قصرا يجمع بين الطرازين الأوروبى والهندى.. أسلوبان معماريان أحدهما ينتمى لعصر النهضة بتماثيله الخارجية والسور المحيط به.. والآخر ينتمى إلى الطراز الكمبودى بعمارته الداخلية وقبته الطويلة المحلاة بتماثيل بوذا.. بدأ العمل فى القصر.. وانتهى عام 1911.. جلب رخامه من إيطاليا..وكريستاله من تشيكوسلوفاكيا.. القصر

وحديقته الواسعة شغلا مساحة 12 ألف و 500 متر.. بلا أسوار فى البداية.. لم يكن هناك هذا السور الذى كثيرا ما طفت حوله منذ سنوات طويلة.. لم أكن أعرف عنه أى تفاصيل.. لكنى كنت أقف مشدوهة أمام منمنمات تماثيله التى تحيط النوافذ.. والقباب غريبة الشكل عما اعتادت عيناى.. لا هى إسلامية ولا أوروبية ولا تنتمى لأى مدرسة مألوفة فى مصر.. لم أنتبه لجملة أحد حراسه منذ سنوات عندما قال لى: «هذا قصر الشمس».. لكنى عرفت فيما بعد لماذا سمى بهذا الاسم!

2

هو القصر الوحيد فى العالم الذى لاتغيب عنه الشمس طوال النهار.. وهذا شىء مدهش لكن له تفسير.. فقد تم تشييد قاعدته الخرسانية على «رولمان بيلى».. تدور على عجلات بحيث يلف القصر بمن فيه كل ساعة ليرى الواقف فى شرفته ما يدور حوله.. متتبعا دوران الشمس على مدار ساعات النهار.. كان معقلا لحفلات السهر والسمر.. وارتاده صفوة المجتمع حتى وفاة البارون فى بلجيكا عام 1929 جراء إصابته بالسرطان.. تلك الصورة لم يرها أو يعرفها المصريون عن القصر.. وهى صورة مغايرة تماما لتلك التى التصقت به. كمكان مظلم.. يثير الرهبة.. وموطن للأشباح.. أو عبدة الشيطان فيما بعد.. القصر افتتحه السلطان حسين كامل.. الذى بدا مبهورا بالمكان.. لم يكن مصدقا أنه يرى القاهرة كلها.. وأهرامات الجيزة من فوق برج القصر.. هذا الانبهار مالبث أن تحول إلى غيره من امتلاك هذا البلجيكى تلك التحفة

الفنية.. فطلب – بإيحاء – أن يهدى البارون له هذا القصر.. ولما اعتذر الأخير بأدب.. خرج السطان غاضبا.. ولم يكن هناك من حل أمام بارون أجنبى مقيم فى مصر.. سوى بناء قصر آخر مجاور لقصره وأهدائه للسلطان.. الذى ما لبث أن رفض مصرا على القصر الأول.. بل واعتبر البارون خارجا على طاعته.. وهنا لم يكن هناك مفر من رحيل البارون حتى تهدأ الأمور.. ومالبثت أن هدأت فعاد البارون.. وكان الرجل معروفا بأنه اقتصادى فذ.. فأنشاء شركة «واحة هليوبوليس» التى أسست ضاحية مصر الجديدة.. فقد كان راغبا فى إقامة مجتمع من الطبقة الأرستقراطية والجاليات الأجنبية بالقاهرة.. وهى الفكرة الرئيسية التى كانت فى ذهن البارون.. وليس فقط بناء قصر للسكن.. فقد عرض على الحكومة المصرية فكرة إنشاء حى فى صحراء شرق القاهرة.. واختار له اسم «هليوبوليس».. أى مدينة الشمس.. واشترى الفدان – وقتها – بجنيه واحد فقط! لم تكن هناك مرافق ومواصلات وخدمات أو أى شىء.. كانت فقط رمال الصحراء.. ولأنه رجل اقتصاد.. ولأنه يدرك جيدا قيمة العمران ووسائله ومعناه.. حتى لو لم يكن فى وطنه.. فقد كانت فكرته لجذب البشر إلى هذه الصحراء.. وسائل المواصلات.. وقد اختار وسيلة مريحة وملائمة لتلك الصحراء.. «المترو «.. الذى ما زال يعمل حتى الآن.. وهو فكر لا يعرفه – وربما يعرفونه ويغضون الطرف – اقتصاديون مصريون قرروا إنشاء مدن جديدة.. وتغاضوا عن تسيير مواصلات منها وإليها فصارت مهجورة معزولة.. كلف البارون «امبان» المهندس البلجيكى «أندريه برشلو «.. الذى كان يعمل حينها فى شركة مترو باريس.. بإنشاء خط المترو هذا ليربط الحى

أو المدينة الجديدة بالعاصمة.. وهنا بدأت إقامة المنازل.. وكانت على الطراز البلجيكى الكلاسيكى.. تحيطها وتخترقها مساحات كبيرة من الحدائق رائعة التصميم.. وألحق عمليات البناء تلك ببناء فندق ضخم هو فندق هليوبوليس القديم.. وبقى قصره على ربوة شاهدا على كل العمران الذى بدأ يزحف من حوله..

3

من غرفته بالقصر.. كان البارون يرى الشمس تشرق كل يوم على بنايات جديدة فخمة.. فتنشرح أساريره.. يحتفظ فى تلك الغرفة بلوحة تجسد كيفية عصر العنب لتحويله إلى خمور.. ثم شربه حسب التقاليد الرومانية.. القصر من الداخل ليس كبير الحجم.. فقط طابقين توزع فيهما 7 حجرات.. فى الطابق الأول صالة كبيرة وثلاث حجرات.. اثنتين منها للضيافة والثالثة كانت صالة للعب البلياردو.. وفى بهوه لوحات مأخوذة من «مايكل آنجلو « و «دافنشى» و «رامبرانت».. وعبر سلم رخامى مزدان درابزينه بتماثيل هندية صغيرة دقيقة الصنع.. تقود إلى الطابق العلوى ففيه 4 حجرات للنوم كل حجرة ملحقة بحمام .. أما البدروم أو السرداب فضم المطابخ والجراجات وحجرات الخدم.. غطى الرخام والمرمر الأصلى الذى استقدم من إيطاليا وبلجيكا أرضياته.. وتماثيل الفيلة بزخارفها تستقر فى مدخله.. جدرانه الخارجية ونوافذه حملت الطراز العربى.. بتماثيل وتحف نادرة من الذهب والبلاتين والبرونز.. بخلاف تماثيل بوذا والتنين الأسطورى.. أما قطع العاج الثمين فتنتشر على جدرانه

الخارجية والداخلية.. على أحد جدران بهوه الرئيسى ساعة أثرية.. هى واحدة من اثنين فقط فى العالم.. الثانية فى قصر باكنجهام الملكى فى لندن.. توضح الوقت بالدقائق والساعات والأيام والشهور والسنين.. وتوضح تغييرات أوجه القمر ودرجات الحرارة.. أما سطحه الأسطورى فقد كان أشبه بمنتزه.. أقيمت فيه حفلات البارون.. ازدانت جدرانه برسوم نباتية وحيوانية وكائنات خرافية.. يتم الصعود إليه عبر سلم من خشب الورد الفاخر.. كان أشبه بكافيتريا يضم موائد كبيرة.. أما برج القصر الكبير المشيد على جانبه الأيسر.. مكون من 4 طوابق يربطها سلم حلزونى.. ترتفع جوانبه الخشبية المطعمة بالرخام.. ودرابزين لسلمه ذو نقوش بصفائح برونزية مزينة بتماثيل هندية دقيقة النحت.. دخل فى بنائه المرمر والرخام الإيطالى.. الزجاج البلجيكى البلورى الذى يسمح لمن بالداخل برؤية ما فى الخارج.. طابق البرج الأخير.. كان المكان المفضل الذى يتناول فيه البارون شاى الغروب.. ملقيا بنظره إلى حديقة القصر المترامية..التى كانت تضم زهورا ونباتات نادرة.. ظل القصر مركزا يبث الحياة فى الحى الجديد كله 18عاما.. حتى توفى البارون إمبان عام 1929.. وهنا طويت تلك الصفحة المبهرة.. وبدأت مرحلة الرعب!

4

عرفت القصر فى هذه المرحلة.. مرحلة الرعب والرهبة.. ولم أكن أعرف أو يعرف غيرى تلك المرحلة المبهجة المبهرة من قبل.. مرحلة الرعب هذه بدأت تدريجيا بإهماله بعد وفاة البارون.. فتحولت حدائقه إلى خراب.. وذهبت

جهود الورثة لإنقاذه هباء.. بعد فرض الحراسة على أموال البلجيكيين فى مصر عام 1961.. فتح مرات معدودة.. الأولى عندما قامت لجان الحراسة بجرد محتوياته.. ثم تلتها بعض المرات لتصوير مشاهد لبعض الأعمال الفنية.. حتى كان قرار الحكومة المصرية بضمه إلى قطاع السياحة وهيئة الآثار المصرية.. فبدأت عملية الإعمار والترميم.. والتى لم تنجح فى بعث الحياة لجدرانه وحديقته.. فظل مظلما مهجورا مثيرا للرعب.. تلك الأجواء المحيطة به.. دفعت جماعات من الشباب المصريين فى منتصف عام 1997.. للتسلل إلى داخله بطريقة مريبة ليلا.. وإقامة حفلات صاخبة بطقوس معينة.. على أنغام موسيقى «الهيفى ميتال» الصاخبة.. ملطخين جدرانه بدماء القطط والكلاب.. فيما عرف وقتها بحادثة «عبدة الشيطان».. وكانت القضية الأولى من نوعها فى مصر.. التى أثارت ضجة كبيرة وقتها.. بعد شكوى سكان البنايات المجاورة للقصر.. وللحقيقة فإن قصة «عبدة الشيطان» لم تنشر تفاصيلها الكاملة.. وكثير منها لم يتم استقصاؤها.. ومنها تواترات تسبق كثيرا التسعينيات من القرن الماضى.. ولعل أهمها ربط قصة «مريام» ابنة البارون بقصة «عبدة الشيطان».. لأن لها الكثير من الدلالات التى تسهم فى فهم الحادثة نفسها.. ويقال أن البارون الذى ولد بعرج ظاهر فى قدميه كان مريضا بالصرع.. وكثيرا ما كانت تنتابه نوبات يسقط على أثرها فى حديقة قصره.. ويظل هكذا حتى يفيق فى الصباح وبجواره كلبه.. فلفرط صرامته لم يكن أحد الخدم يستطيع الاقتراب منه إلا بأمره.. قيل وقتها أن القصر فى هذه الفترة كان يضم أشباحا.. حتى كان عام 82.. حيث يذكر أن بعض المارة شاهدوا دخانا ينبعث من غرفة القصر الرئيسية.. داخلا

إلى شباك البرج الرئيسى.. ثم لا تلبث النيران أن تتوهج ثم تنطفىء وحدها.. إحدى غرف القصر كان «البارون» قد حرم دخولها.. حتى على ابنته وأخته البارونة «هيلانة».. وهى الغرفة الوردية ببدروم القصر.. وهى غرفة تفتح أبوابها على مدخل السرداب الطويل الذى يمتد لكنيسة البازيليك.. تلك التى دفن فيها البارون بعد وفاته.. كنيسة البازيليك تقع فى شارع الأهرام بروكسى..5 كيلو مترات.. لذا فهى بعيدة نسبيا على أن يكون هناك سرداب بينها وبين القصر!! أما البارونة «هيلانة» شقيقة البارون.. فقد ماتت بعد سقوطها من شرفة غرفتها الداخلية.. كان البارون وقتها يدور ببرج القصر ناحية الجنوب.. فتوقفت القاعدة عن الدوران فى تلك اللحظة التى صرخت فيها أخته.. وكانت هذه هى الشرارة الأولى للقصص التى تواترت عن الأشباح التى تخرج من غرفة البارونة إلى غرفته الشخصية.. وقد غزلت القصص الشعبية الكثير حول غضب روح البارونة «هيلانة» من تأخر شقيقها فى إنقاذها.. وهو السبب فى العطب الذى أصاب تروس دوران البرج الدائر.. والتى لم تدر منذ تلك الحادثة حتى موت البارون نفسه عام 1929!!

5

البارون المسكين.. بحسب توصيف أهل المنطقة.. فقد اعتقدوا أنه نجح فى تحضير روح أخته للاعتذار لها.. بعد سقوطها وعدم تمكنه من إنقاذها.. لأنهم كانوا يسمعون أصوات شجار بعضها صراخ للبارون وأخته.. ويفسرون هذا بحالة الاكتئاب الفظيعة التى دخل فيها بعد وفاة شقيقته وأدت فى النهاية

لوفاته.. أما «مريام» ابنته فتلك حكاية أخرى.. فقد أصيبت بشلل أطفال بعد ولادتها بفترة وجيزة.. وكان والدها البارون قاسيا معها.. شرسا أحيانا كثيرة.. فساءت حالتها النفسية.. وكانت تنتابها نوبات هستيرية عصبية لساعات.. فتختلى بنفسها فى بعض غرف السرداب الأسفل بالقصر.. ثم تعود بعدها لغرفتها معتدلة المزاج.. مرددة أن الحديث مع صديق لها يريحها كثيرا.. ولم يهتم أحد بالسؤال عن هذا الصديق أو محاولة مشاهدته.. والقصة على عدم تصديقها كانت الخيط الذى نسجت به فيما بعد أسطورة «عبدة الشيطان».. وبعد وفاة شقيقة البارون.. كانت تسمع أصوات لحديث بينها وبين «مريام».. فى إحدى غرف مدخل سرداب القصر.. وذات يوم وجدت «مريام» ملقاة على وجهها ميتة فى بئر المصعد المؤدى للدور العلوى.. حيث كان البارون يتناول طعامه.. الذى ساعد على سريان حكايات الأرواح الغضبى وتناقلها عبر الأجيال.. إن المرايا المجلدة لحوائط الغرفة الوردية أسفل القصر.. قد تحولت للون الأحمر.. وقد ذكر بعض المتسللين أنهم كانوا يرون دماء على هذه المرايا.. بعض حراس القصر – الذين لايستمر معظمهم فى العمل إلا فترة قليلة – يرجعون سبب وجود الدماء بالحجرة الوردية.. إلى اصطدام الخفافيش التى اتخذت من القصر مقرا لها بهذه المرايا.. رغم أنه معروف أن الخفافيش لا تصطدم بالحوائط..

لم تكن قصة عبدة الشيطان قد بدأت.. ولا كان ترامى إلى ذهنى أو سمعى أى شىء عما تواتر من قصص الأشباح تلك.. لكنى شعرت برهبة ممزوجة بالرعب.. عندما تسللت فى ثمانينات القرن الماضى عبر سوره الخلفى المتهدم إلى الداخل.. بصحبة أصدقاء.. شىء ما يتسلل إليك فجأة عندما تطأ قدماك

أرضا تتشابك فيها أغصان شجر ذابلة عصية.. رغم أنى لا أؤمن بالمرة بكل ما يقال فى هذا السياق..

6

حتى عندما فكر ملاك القصر الجدد تحويله لمشروع.. بعد موافقة وزارة الثقافة.. وترميمه كاملا والاحتفاظ بمحتوياته القديمة.. لتحويله إلى مدينة للملاهى.. لم يكتمل هذا المشروع.. وفى عام 2006.. ومع الاحتفال بمئوية حى مصر الجديدة.. كانت نهاية أكثر من 50 عاما من الإهمال.. حيث اشترته وزارة الإسكان من ملاكه.. ومنحهم قطعة أرض بديلة فى واحدة من المدن الجديدة.. لإقامة مشروع استثمارى.. وتحويل القصر إلى متحف..

مضت 3 أعوام.. القصر مضاء ليلا بأكثر من أى مكان أو بناية أخرى.. وحديقته مهذبة معتنى بها.. وأرضه ممهدة.. والبوابة الرئيسية لسوره يقبع أمامها حارس 24 ساعة فى اليوم.. لكننى عندما أعبر تلك المنطقة.. فتقع عينى على أى زاوية من زوايا القصر.. تنتابنى قشعريرة لا أخطئها.. مازال هذا القصر رغم كل شىء.. عنوانا للرهبة.. ففى الدنيا أشياء لا يمكن فيها إعمال العقل!

الثالثة عشرة

طلعت باشا حرب

الوقوف فى وسط ميدان طلعت حرب بقلب القاهرة.. يمنحك شعورا طاغيا أنك قطعة من تاريخها .. اقتصاديا وسياسيا وثقافيا.. عندما تقف عند قاعدة تمثال طلعت حرب الذى يدور حوله الميدان كله.. فأنت فى رحاب مصر العظيمة.. وفى حضن واحد من عظمائها «طلعت حرب» باشا.. تواجه «جروبى».. الذى يعلوه مقر حزب الغد.. «المأسوف عليه».. تنعطف قليلا فى شارع قصر النيل .. فتكون فى صحبة مثقفى وسط البلد فى «الجوريون».. تعبر الممر الضيق المجاور له.. فى الاتجاه إلى شارع كريم الدولة.. فأنت أمام مقر حزب «التجمع الوحدوى».. ثم لا تلبث أن تجد نفسك فى ذات الشارع مواجها لتمثال طلعت حرب مرة أخرى.. صوب مكتبة مدبولى.. فى أى شارع يواجه الميدان.. أنت دائما تدور فى فلكه..

1

يمر به يوميا آلاف البشر من كل لون.. ويعرفونه.. تمثال طلعت حرب باشا.. يميزون به الميدان.. ويميزون الميدان به.. «طلعت حرب» باشا.. الوطنى الاقتصادى العظيم.. أعشق التوقف عند تمثاله ليلا.. فهو شأن منطقة وسط القاهرة كلها.. أكثر بهاء ورونقا وفخامة ليلا.. وبعد مرات كثيرة من العبور بالتمثال.. والتوقف عند قاعدته.. اكتشفت أنه لا ينظر فى اتجاه الشارع المسمى باسمه.. بل ينظر فى اتجاه شارع قصر النيل! لا أدرى إن كان من وضعوا التمثال فى هذه الزاوية.. وبهذا الاتجاه.. لهم رؤية جغرافية أو سياسية من هذا؟! أو أن هناك فلسفة من أن يبدو شخص من ظهره فى ميدان يحمل اسمه.. مثلما يفعل بعض «المحاورين»؟! أو ربما وضعوه هكذا ناظرا فى اتجاه بنوك المركزى والأهلى فى شارع قصر النيل.. باعتباره رجل اقتصاد مهم ونادر.. على كل حال.. قبل عام 1952 لم يكن هناك هذا التمثال.. ولا كان الشارع باسم «طلعت حرب».. كان اسمه «سليمان باشا».. ومازال البعض يسمونه باسمه القديم.. ثم قامت الثورة وغيرت أسماء معظم الشوارع.. لأسماء مصرية.. لم يخبرنا أحد إن كان «سليمان باشا» هذا رجل عظيم.. أم كان من أعوان الاستعمار فاستحق شطب اسمه من ذاكرة المصريين؟! بحثت شغفا فى تاريخ الاثنين لأعرف بنفسى.. هل يستحق «سليمان باشا» التجهيل.. مع اقتناعى التام بمكانة وعظمة «طلعت حرب» باشا.. فقد شغلنى كثيرا التوقف عند فيروس مصرى شهير.. وربما قديم.. عند بناء الجديد.. يتم – عمدا أو بدون – طمس

القديم.. فعلها بعض ملوك الفراعنة منذ آلاف السنين.. عندما قاموا بمحو نقوش سابقيهم ليضعوا أسماءهم عليها.. وعرفت من هو «سليمان باشا»..

2

«سليمان باشا» الفرنساوى.. الضابط الفرنسى الذى صحب الحملة الفرنسية على مصر.. نهاية القرن الثامن عشر.. كانت رتبته كولونيل وكان اسمه الأصلى «سيف «.. رحلت الحملة الفرنسية.. وظل «سيف» فى مصر.. فقد وقع فى هواها.. وعندما فكر «محمد على» باشا فى تأسيس جيش مصرى حقيقى من المصريين.. اعتمد عليه فى تدريب أفراد هذا الجيش المنتظر.. بذل الرجل جهدا ضخما لنقل هؤلاء المزارعين المصريين من حياة لم يعرفوا سواها من قبل.. الزراعة والأرض.. لحياة العسكرية المختلفة كليا.. الانتقال من صفة المزارع الصبور طويل البال.. الذى يضع البذرة ثم ينتظر موسم الرى.. ثم موسم الحصاد.. فتمر أيامه وشهوره رتيبة بطيئة.. إلى صفة الجندى المنضبط الملتزم.. أنشأ «الباشا» مدرسة للحربية.. واستدعى خبراء من الخارج.. وأرسل بعثات لأوروبا حتى يتعلم هؤلاء المزارعون السابقون فنون العسكرية.. ظل يقوم بهذه المهنة الشاقة بعد نهاية عصر «محمد على».. وحتى عصر «سعيد» باشا.. هذا الرجل أشهر إسلامه مقتنعا.. وأسمى نفسه «سليمان».. وتزوج فيما بعد من ابنة «محمد شريف» باشا.. الرجل الملقب باسم « أبو الدستور المصرى».. أنبتت تلك الزيجة ابنة.. تزوجت بعدها من «عبد الرحيم صبرى» باشا وزير الزراعة.. وتلك أنجبت بدورها بنتا أخرى أسمتها «نازلى» .. التى

صارت ملكة لمصر فيما بعد.. عندما تزوجت من الملك «فؤاد».. فأصبحت أما لآخر ملوك مصر «فاروق».. أليست الدنيا صغيرة جدا؟! المثير أن تسمية الشارع بهذا الاسم جاءت من المصريين.. إمتنانا للرجل الذى ساهم فى بناء جيش مصرى قوى.. ليس هذا فقط.. بل بنوا له تمثالا وضعوه فى هذا الميدان المسمى باسمه.. وظل التمثال فى مكانه حتى قامت ثورة يوليو 1952.. تغير اسم الميدان.. فصار «طلعت حرب».. ونزع التمثال من مكانه.. ليحل محله تمثال صاحب الميدان.. وهو يستحق بلا شك أن يخلد اسمه وصورته.. المصريون أحبوا «سليمان باشا» حقا.. لذا فقد ظلت ذاكرتهم تتوارث اسمه.. ومازال الكثيرون يطلقون على الشارع تسميته القديمة.. أحبوه لأنه أحبهم وقدرهم واحترمهم.. فقد كان يقول: «المصريون أفضل جنود رأيتهم فى حياتى.. يملكون النشاط والقناعة والجلد واحتمال المتاعب ورضا النفس.. رأيتهم فى معركة قونية عام 1832.. التى استمرت 7 ساعات وانتهت بهزيمة العثمانيين.. 7 ساعات على خط النار بمنتهى الشجاعة.. ودون أن تختل صفوفهم أو تماسكهم».. لهذا تعجبت من نزع تمثاله وتغيير اسمه من الميدان.. وتعجبت أكثر من نقل التمثال ليحتل ساحة المتحف الحربى!

3

على بعد خطوات من الميدان.. فى شارع هدى شعراوى.. الوكالة العريقة التى تأسست عام 1955.. كشركة مساهمة تملكها دور الصحف المصرية..

رأسمالها وقتها كان 20 ألف جنيه.. ثم شاركت الحكومة بعدها بنصف المبلغ.. بعد أشهر من تأسيسها.. بدأت البث على أجهزة التيكرز كأول وكالة إقليمية فى الشرق الأوسط.. أممت الوكالة عام 1960 مثل باقى المؤسسات الصحفية.. وظلت تابعة لوزارة الإعلام حتى عام 1978.. فصارت مؤسسة صحفية قومية تتبع مجلس الشورى.. لتحتل رقم 11 طبقا لتقرير اليونسكو.. بدأت باللغة العربية.. ولكنها الآن تبث باللغات العربية والأنجليزية والفرنسية.. وفى 1996 بدأت ببث خدماتها عبر 3 أقمار صناعية.. تغطى إفريقيا وآسيا وأوروبا والأمريكتين.. دخلت الوكالة ضمن بعثة من المركز الدولى للصحفيين – منظمة أمريكية غير حكومية – عام 2005.. فبهرتنى قاعة التدريب المتميزة التى يضمها المبنى الجديد لها.. المجهزة بالتقنيات والأجهزة التى تتطلبها عمليات التدريب.. على بعد خطوات إلى الخلف من هذا المبنى.. يقع ملتقى الأرستقراطية فى مصر قديما.. «جروبى».. مستقرى للالتقاء بأى زملاء أو أصدقاء أو التماسا للراحة بعد مسيرة ما.. طوال الثمانينات والتسعينيات من القرن الماضى.. بأثاثه العتيق.. والزى المميز للعاملين به.. وإطلالته عبر نوافذه الزجاجية العتيقة على الميدان الفسيح.. وظهر تمثال «طلعت حرب» باشا.. مذاق منتجاته المتنوعة الذى تغير عبر السنين.. متراجعا كثيرا أمام منافسة شرسة.. فى سوق لا يرحم ولا يعترف بتاريخ.. وتاريخ هذا المكان يعود إلى عام 1891.. حوالى 118 عاما.. أسسه مجموعة من رجال الأعمال السويسريون.. ثم تولاه الخواجة «جروبى».. وهكذا كان يسميه من يزهون بحصولهم على شيكولاته مزيلة باسمه.. كان متعهدا لشيكولاته الملوك والباشوات.. الملك فاروق نفسه

قام بإهداء أميرات بريطانيا العظمى – وقتها – «إليزابيث» و «مارجريت» مائة كيلو شيكولاته معبأة من جروبى.. ومختومة بالشعار الملكى.. جروبى أول من أدخل تكنولوجيا «الكريم شانتيه» لمصر.. وكان أيضا مؤمنا بقضية مساواة المرأة والرجل مبكرا.. فكان أول من قام بتوظيف نساء للعمل فى محلاته.. التى كانت ملتقى للصفوة والطبقة الأرستقراطية فى مصر.. وأحد عناوين الحضارة الغربية.. بشكل المكان.. وتصميمه.. ونوع طعامه وخدمته.. كان مطعما على الطراز الأوروبى.. وفى عام 1906 تقاعد الخواجة « جروبى «.. وباع مصنعه للفرنسى « أوجست بوردو «.. الذى فقد أمواله ومدخراته فى الانهيار الاقتصادى عام 1907.. الآن حال المكان أصبح مثل شركات القطاع العام الخاسرة.. فى كل شىء.. ويبدو أن هذا هو حال الدنيا!

4

« ومنذ عدة سنوات.. وفى واحدة من مرات عبورى بالميدان.. انتبهت للافتة تغطى الدور الذى يعلو جروبى.. برتقالية اللون.. تحمل اسم «حزب الغد».. استقبل استقبال الفاتحين كمشروع لحزب ليبرالى جديد.. يزاحم كل الأحزاب المحتضرة على الساحة المصرية.. وقبل أن يخرج للنور بالفعل.. ويصير له دور أو لا يصير.. دخل فى غيبوبة.. ويبدو أنه بدأ محتضرا.. أو ناقص النمو.. أو نتيجة تدخل ما فى الجينات.. الصعود والهبوط لرئيسه أو «صاحبه».. فالأحزاب صارت مثل الأكشاك أو البوتيكات.. التى تعلوها لافتة «لصاحبه فلان».. ليست كيانات مؤسسية كما يجب أن تكون.. صعود وهبوط «صاحب»

الحزب.. كان أحد علامات اهتزازه منذ ميلاده ثم احتضاره السريع.. وهذا شيء يدفع إلى الصورة عنصرا آخر.. حزب التجمع.. الذى يبعد خطوات قليلة عن حزب الغد.. فى شارع كريم الدولة.. وهو أول حزب تم تأسيسه فى مصر بعد حل الاتحاد الاشتراكى وإعادة الأحزاب.. كان هو الحزب الوحيد فى مصر سنة 1976.. خرج على أكتاف ما يقرب من 170 ألف عامل مصرى.. وعدد كبير من أصحاب التوجهات اليسارية : اشتراكيين وشيوعيين وناصريين وقوميين.. وليبراليين أيضا.. عندما بدأ كان يعلى مجموعة من المبادىء.. أهمها أن الديمقراطية هى ضمان الاستقرار وتداول السلطة بشكل رسمى.. لم أدخل حزب الغد.. لكنى دخلت حزب التجمع كثيرا.. منذ مطلع الثمانينات من القرن الماضى.. مشاركة فى ندوات.. ومشاهدة لعروض أفلام.. وملتقية بأعضائه الذين كان بعضهم أصدقائى فى فترات مختلفة من عمرى.. وفى عام 2003 دخلته للقاء رئيسه – وقتها – الأستاذ خالد محيى الدين.. كانت احتفالات ثورة يوليو.. وحاورته كصحفية بقسم المرأة فى الأهرام.. عن الثورة والمرأة.. كان شخصية مبهرة.. حاضر الذهن.. متسق مع ذاته.. واضح الرؤية.. بعدها ترك الحزب.. فضرب مثلا بمبادىء حزبه العريق عن الديمقراطية وتداول السلطة.. بخلاف أحزاب أخرى!

5

ولأنه ليس كل النضال أحزاب.. وليست كل السياسة كلام فى السياسة.. فقد انتبهت لنضال من نوع آخر.. نضال بالفطرة.. وسياسة أخرى

ليست بالكلام.. فى الكتب والصحف والثقافة.. فى حب الوطن.. بدون مدارس أوشهادات.. يمكن للمعرفة أن تكون من الحياة.. فى هذا المكان.. الذى يعرفه الكثيرون.. «مكتبة مدبولى».. ليس كل المترددين عليه مشترون للكتب.. بعضهم يطلعون فقط.. وبعضهم يتواعدون على بابه.. وبعضهم يتظاهرون على الرصيف المتسع أمامه.. وبعضهم ينتظرون تاكسيا.. فيلقون نظرة عابرة على الكتب فى فاترينته.. وكثيرون من يعرفون صاحبها.. رحمه الله.. عم مدبولى.. محمد مدبولى محمد حسين.. كان عم مدبولى من الفدائيين المصريين وقت الاحتلال الانجليزى.. الاحتلال الذى وحد أرواح كثير من البلدان التى احتلها فى نفس الوقت.. ويذكر عن غاندى.. أنه قال فى مصر عن ثورة 1919.. «إننا تعملنا فى الهند معنى الثورة الشعبية من ثورة 1919».. فالثقافة لا وطن لها.. والمعرفة لا جنسية لها.. وعلى بعد خطوات من مكتبة مدبولى.. أحد بقع الثقافة المصرية المضيئة فى ميدان طلعت حرب.. هناك بقعة أخرى فى نفس المنطقة.. هندية هذه المرة.. مركز «مولانا أبو الكلام أزاد».. المركز الثقافى الهندى.. فى الداخل يرسمون.. ويعزفون الموسيقى.. ويتعلمون اليوجا.. طوال 59 عاما.. هى عمر المركز الذى تأسس عام 1950.. يقدم أنشطة تعنى بالثقافة من هذه الزاوية.. يقدم منحا للطلبة المصريين فى الهند.. فى العلوم والفنون والعلاقات الاجتماعية والصحة والرياضة.. ويقدم عروضه فى الفنون التشكيلية والصور الفوتغرافية.. وتعليم اللغات الهندية والأردية.. ترددت على المركز كهاوية للفنون الهندية.. ثم كصحفية.. وفى المرة الأولى التى دخلته.. توقفت أمام صورة لرجل هندى يشبه «غاندى» باللباس الهندى

المميز.. وتحتها اسمه «مولانا أبو الكلام أزاد».. الراجل عاش 80 عاما.. وكان عالما بارزا ورجل دولة من الطراز الأول.. كان ثالث ثلاثة: غاندى ونهرو وهو فى الكفاح من أجل الحرية.. وأول من شغل منصب وزير التعليم فى الهند بعد الاستقلال..مؤسس المجلس الهندى للعلاقات الثقافية.. هو رمز لأفكار التعددية والعلمانية فى الهند.. أسهم بشكل كبير فى مجال الدراسات الإسلامية.. وضع الأسس التعليمية والثقافية فى الهند بعد الاستقلال..وشارك فى تأسيس مراكز البحث العلمى والثقافى.. مولانا «أزاد» وقع فى هوى الحضارة المصرية بعد زيارته لمصر.. وعشق بعدها العالم العربى كله.. لذا فكل المراكز الثقافية الهندية فى البلدان العربية تحمل اسمه..

٥

«بدأت بميدان «طلعت حرب».. فتحدثت عن «سليمان باشا» الفرنساوى.. فى التأخير فائدة لأن الكلام عن الرجل يطول.. ولأن لدى المصريين الختام دائما مسك.. محمد طلعت محمد حرب.. ولد فى 25 نوفمبر 1867 وتوفى فى 23 أغسطس 1941.. قام بتأسيس بنك مصر وشركة مصر للغزل والنسيج.. وأيضا استوديو مصر.. ينتمى لمحافظة الشرقية.. معقل الوطنية المصرية.. ومولود فى منطقة قصر الشوق فى حى الجمالية.. مصرى خالص.. والده كان موظفا فى مصلحة السكك الحديدية المصرية.. حفظ القرآن كاملا وهو طفل.. حصل على شهادة الحقوق عام 1889.. وقت ذروة

الثورة العرابية.. بدأ عمله مترجما بقلم القضايا.. ثم رئيسا لإدارة الحسابات.. ثم مديرا لمكتب المنازعات.. الذى رأسه من قبل الزعيم الوطنى محمد فريد.. وفى عام 1905 أصبح مديرا لشركة «كوم امبو « فى القاهرة.. ثم أدار الشركة العقارية المصرية.. التى قام بتمصيرها فيما بعد فآلت أغلبية أسهمها للمصريين.. وتلك كانت بداية ثورته لتمصير الاقتصاد المصرى.. ثم اتجه لدراسة العلوم الاقتصادية واللغة الفرنسية وأتقنها.. ففتح أمامه الباب على اتساعه أمام كل التيارات العلمية والثقافية فى العالم.. كان متعدد المواهب.. فعمل فى الصحافة.. وألف كتبا أدبية.. خاض معارك فكرية أبرزها خلافه مع قاسم أمين فى قضية تحرير المرأة.. لأنه كان محافظا.. تعددت مؤلفاته.. «كلمة حق عن الإسلام والدولة العثمانية».. «تربية المرأة والحجاب»..

لم يكن الرجل «باشا» بحسب مفهومنا.. أو ما ورد إلينا عن الباشوية.. رغم عراقة عائلته.. كان منحازا بصدق للفلاحين.. كانت لديه نزعة اشتراكية مبكرة.. اشتراكية الأرض المصرية ذات الخصوصية الإنسانية.. وفى يوم الجمعة 7 مايو 1920.. فى دار الأوبرا المصرية.. أعلن تأسيس بنك مصر برأسمال 180 ألف جنيه.. بقيمة سهم 4 جنيهات مصرية.. ومع نهاية العام الأول.. ارتفع رأس المال إلى نصف مليون جنيه.... ثم مليون فى عام 1932.. وقتها كان يعمل 15 ساعة يوميا.. وظل هكذا 5 سنوات دون مقابل.. وكانت رسالته

أن بنك مصر ليس بنكا تجاريا.. مهمته الأولى إدخال التصنيع لمصر وتشجيع التجارة.. استحق ما كتبه عنه الكاتب الفرنسى المعروف «جاك بيرك».. أنه «صاحب ميزة إدراك القوة الكامنة والإمكانات الهائلة التى لم يستغلها أحد داخل المصريين»..

بأرباح البنك تم إنشاء 20 شركة مصرية.. عبر فروعه التى وصلت إلى 37 فرعا بحلول عام 1938.. كان دولة.. دخل فى كل المشروعات.. فأنشأ أول مطبعة.. وشركة للنقل البرى.. وأشترى أول اتوبيسات لنقل الركاب.. تلك التى ظهرت للمرة الأولى فى فيلم «الوردة البيضاء» للموسيقار محمد عبد الوهاب.. استقدم من بلجيكا صناعات الغزل والنسيج والنقل النهرى.. استحق لقب «صاحب الجبروت».. لما قام بإنشاء شركات للملاحة والأسمنت والصباغة والمناجم والمحاجر والزيوت والمستحضرات الطبية.. الألبان والفنادق والتأمين.. بصماته لم تكن على الأرض فقط.. كانت أيضا فى الجو.. فشركة مصر للطيران شهدت كفاحه حتى صدر بها مرسوم ملكى عام 1932 برأسمال 20 ألف جنيه.. وطائرتان من طراز «دراجون موت» ذات المحركين.. سعة 8 ركاب.. كانت أول رحلاتها من القاهرة للإسكندرية.. ثم مطروح.. ثم أسوان.. أما أول رحلاتها للخارج عام 1934 إلى القدس..

7

المثير فى الأمر.. أن أول بعثة سافرت لأوروبا لتعلم فنون التصوير والإخراج والديكور والمكياج.. كانت على يد طلعت حرب أيضا.. وكانت مكونة من أحمد بدرخان وموريس كساب فى الإخراج.. وحسن مراد ومحمد عبد العظيم فى التصوير.. ولى الدين سامح فى الديكور ونيازى مصطفى فى المونتاج.. هذا هو العظيم الذى يستحق إطلاق اسمه على ميدان وشارع مهم.. وبغض النظر عن مسألة نزع تمثال سليمان باشا واسمه.. فتلك هى الدنيا!

الرابعة عشرة

أفراح المصريين فى درب البرابرة!

ميدان عالى الصوت دائما.. صاخب دائما.. ليس هناك فارق كبير بين ليله ونهاره.. بكل البنايات القديمة التى تطل عليه.. هيئة البريد.. والدفاع المدنى.. والمسرح القومى.. ميدان العتبة.. الذى كان يسمى قديما «العتبة الخضراء».. التى باعها أحمد مظهر لإسماعيل ياسين.. فى الفيلم الكوميدى الشهير الذى حمل اسمها.. ميدان العتبة.. الذى طغت فيه ثقافة «الميكروباس».. الذى احتل لنفسه مكانا عنوة فى قلب الميدان.. تلك الثقافة التى خطت لنفسها دستورا فى هذه المنطقة حتى قبل غزو الميكروباس.. عندما زحف الباعة الجائلين بكل أنواع البضاعة إلى الشارع نهاية السبعينيات من القرن الماضى.. وصار شارعه الفرعى المسمى «درب البرابرة» أشهر من كل بناياته القديمة تلك.. شارع يشهد على أفراح المصريين..

1

«البوستة».. تلك الكلمة الدارجة التى مازال المصريون يستخدمونها.. فتستدعى للذاكرة دائما.. الصوت العالى الذى ينادى بها.. للرجل الذى يمتهنها.. متوقفا فى بهو البنايات أو على أبوابها الخارجية.. منبها من بداخلها لبريد خاص بهم.. «بوستة» تقال بنغمة بعينها.. يقولها على درجات السلم الموسيقى بالفطرة.. «البوستجى» الذى جسد شخصيته ودوره المخرج الراحل «حسين كمال» فى فيلم يحمل ذات الاسم.. مرتديا لباسا «كاكى» يشبه لباس أفراد الجيش.. حاملا حقيبة ذات يد طويلة على كتفه.. حفاظا على ما يحمله من أسرار وشكاوى وتواصل البشر.. فى بر مصر المحروسة.. وفى ميدان العتبة وسط القاهرة.. يعلو مقر هيئة البريد.. المقر العريق الذى يعود إلى عام 1856.. فيكون قد أتم الآن 153 عاما.. أنشأه الخديوى «إسماعيل».. وقل فى الرجل ما شئت لكن لا بد أن تعترف بما ترك لنا من معالم حضارية.. من هذا المبنى العتيق تقاس المسافات من المحافظات إلى القاهرة والعكس.. أضاف لخدماته العادية خدمات أخرى.. فيقوم بتوصيل المعاشات للمنازل مجانا.. لأكثر من 350 ألف مواطن مصرى.. إصدار واستخراج دفاتر التوفير.. والسحب والإيداع بأقل المبالغ.. وهو أمر لا يحدث فى البنوك والمؤسسات الإدخارية.. المبنى يخضع لأعمال تطوير وتجديد.. هى الأولى من نوعها منذ إنشائه.. ومتوقع أن تنتهى عام 2011.. الذى سيصبح متحفا أثريا ضخما.. المبنى الذى كان أحد الدعائم الرئيسية لقيام الدولة.. يقوم بنقل أوامر الدولة

و تسهيل أعمال الحكومة وتسهيل العلاقات بين الجماعات والأفراد و ربطهم بالعالم الخارجى.. كان حلقة حديثة نوعا رغم قدمه.. ضمن حلقات استخدام البريد فى التاريخ المصرى.. وأنا لا أمل من القول والتكرار.. بأن الأمر شأن كل الأمور.. يعود إلى عصر الفراعنة.. ليس تحيزا إنما هى سطور التاريخ!

2

الفراعنة الذين اكتشفوا كل شىء تقريبا فيما يخص البشر.. ووجدوا طرقا للتعامل معه.. كانوا أصحاب أول وثيقة جاء بها ذكر البريد.. كان ذلك فى عهد الأسرة الثانية عشرة.. تقريبا عام 2000 قبل الميلاد.. وكانت وصية من أب لولده يظهر فيها أهمية صناعة الكتابة والمستقبل المبهر الذى ينتظر الكاتب فى وظائف الحكومة.. كان الفراعنة أصحاب أول تنظيم نقل البريد خارجيا و داخليا.. يستخدمون السعاة سيرا على الأقدام.. يتبعون ضفتى النيل ذهابا وعودة داخل البلاد.. و يسلكون طرق القوافل والجيوش للبريد الخارجى.. هذا ثابت فى نقوش جدرانهم.. وما خطوه على البرديات.. تبعهم البطالسة والرومان فى هذا الأمر ثم طوروه.. فاستخدموا البريد السريع على الجياد لنقل بريد الملك ووزيره وموظفى دولته.. والبريد العادى لنقل بريد باقى المواطنين.. فى الوقت الذى نقل العرب هذه الطرق عندما جاءوا إلى مصر.. ويقال أن الذى قام بإضافة تذكر لتطوير الأمر كان معاوية بن أبى سفيان.. بأن استخدم طرقا محددة مقسمة إلى محطات لتغيير الخيول والتزود بالمؤن.. أما فى أوروبا.. فلم تأخذ شكلها المنظم إلا بأواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن

العشرين.. لتظل مصر هى الدولة العربية والإفريقية الوحيدة التى نظمت مؤتمر البريد العالمى فى دورته العاشرة عام 1934.. وهى الدولة المقر لاتحاد البريد الإفريقى.. واللجنة العربية الدائمة للبريد..

3

الحديث عن قرار تخفيض عدد العاملين من 4 آلاف إلى 1500.. هو حديث يأتى على ضفاف حديث آخر أكثر عمومية.. الخصخصة.. وفى **مايو** الماضى.. شهدت مكاتب البريد المصرية حركة احتجاجات محدودة.. وسط حصار أمنى مشدد.. موظفو البريد معترضون على عدم مساواتهم فى الرواتب بموظفى الشركة المصرية للاتصالات.. اللافت أن إضراب منطقة العتبة كان محدودًا.. بإبطاء العمل لأنه تزامن مع يوم صرف معاشات المواطنين.. فى الوقت الذى شهد بريد رمسيس إضرابا كاملا.. بخلو المكاتب من العاملين.. وهذا الحديث يجرنا أيضا للحديث عن أول محاولة لخصخصة البريد فى مصر.. تلك التى جرت فى منتصف القرن التاسع عشر.. وكان بطلها «كارلو ميراتى» أحد الأوروبيين المقيمين فى الإسكندرية.. أنشا إدارة بريدية خاصة به لتصدير واستلام الخطابات المتبادلة مع البلدان الأجنبية.. نظير أجر معتدل.. ونقل أيضا الرسائل بين القاهرة و الإسكندرية من مكتبه بميدان القناصل.. المسمى الآن ميدان سانت كاترين.. توفى «كارلوميراتى» عام 1842.. فأكمل بعده ابن أخته «تيتوكينى» الذى قام بتطوير مشروعه مع شريكه «موتسى».. وأطلق عليه اسم «البوستة الأوروبية».. التى احتلت مكانه مهمة بين الحكومة والأفراد.. وحازت ثقة الجميع.. وحصلت على ما يشبه احتكار البريد فى مصر وقتها..

توفى «تيتو كينى».. واشترت الحكومة المصرية فى عهد الخديوى «إسماعيل» البوستة الأوروبية من «موتسى» مقابل تعيينه مدير عام البريد فى يناير عام 1865.. لتكون هذه أيضا أول عملية تأميم لهيئة خاصة من قبل نظام ملكى! وصار هذا يوما للبريد المصرى كل عام..

وفى عام 1957.. تحولت من مصلحة البريد إلى هيئة البريد المصرية بقرار رئيس الجمهورية.. ثم أنشئت أول مدرسة ثانوية للبريد عام 1961.. تبعها عام 1965 إنشاء المعهد العالى للشئون البريدية.. الذى انضم فيما بعد لكلية التجارة جامعة حلوان عام 1975.. وبحلول عام 1982 إنضمت الهيئة القومية للبريد إلى وزارة المواصلات.. ثم مالبثت أن انتقلت تبعيتها إلى وزارة الاتصالات والمعلومات عام 1999.. تلك الرحلة الطويلة.. مسطورة على جدران هذا المبنى العتيق فى ميدان العتبة.. شاهدا لا يبوح حكايات وأسرار ومشاكل وأحزان وأفراح المصريين..

4

الحديث عن أفراح المصريين يقودك حتما إلى شارع «درب البرابرة».. الذى يقع على مرمى بصر الواقف بباب بوستة العتبة.. يزوره يوميا آلاف البشر.. فى الزواج والخطوبة والميلاد وأعياد الميلاد.. درب أو طريق.. كان يوما ما سوقا للخدم.. منذ تطأ قدماك باب الدرب.. فأنت محتفى بك بكل أصناف اللآلىء والكريستالات والتشكيلات المعدنية المذهبة والفضية.. المتراصة بعناية فى محاله المتلاصقة.. تذوب فى هذا الشارع كل الفوارق الطبقية التى تفشل فى

إزالتها أعتى النظريات والحركات والتيارات.. فهو يبيع لكل الطبقات.. يبيع الأصلى والمقلد.. الغالى والرخيص.. من عشرات الجنيهات إلى آلافها.. يبيع ويجرى عمليات صيانة وكل شىء.. بأنامل صناعه المهرة..

صحبة ورد العروس واكسسواراتها.. تاج العروس وشموع الفرح.. البونبونيرة وملابس المولود.. مستلزمات سبوع المولود ولعب الأطفال.. كل ما يطلبه بشر فى احتفال عيد ميلاد.. أو مناسبة خاصة.. يتحرك فيه دائما البشر ثنائيات فيسمونه شارع الحب.. وجماعات من النساء أيضا.. ولا تجد فى هذا الشارع فرادى.. شارع الأفراح.. وهو شارع غريب حقا.. لا تجد بين مرتاديه.. أيا كانت مشاكلهم الاقتصادية.. أو أوضاعهم الصعبة.. من يعقد جبهته.. يضم حاجبيه الرقم الشهير 111..!! تلك العلامة التى تتركها تقطيبة دائمة على الوجه.. بشر هذا الشارع مبتهجون.. حالة الابتهاج التى ينقلها القادمون لشراء مستلزمات مناسبات سعيدة.. تنتقل بسرعة إلى العابرين عبر الشارع.. من أو إلى شوارع أخرى.. أو حتى القاطنين حوله.. شارع يدلل على نظرية قديمة تقول أن الشعور بالابتهاج أمر معدى.. الضحك عدوى.. ويبدو أن المصريين تحصنوا ضدها فى السنوات الأخيرة فصار معظمهم غير قابلين لها.. صارت بكائياتهم أكثر كثيرا من ضحكاتهم.. ربما لطبائع الأمور.. وربما لأحداث متلاحقة تثير الأحزان.. ولا يستطيعون منها فكاكا.. بعد أن فقدوا القدرة على تحديها.. فصار معظمهم يرسمون على الوجوه اللوحتين الشهيرتين اللتين ترمزان للمسرح.. الباسمة والحزينة!

5

الصورتان اللتان تعبران بشدة عن حالة المصريين.. واللتان تتجاوران على وجوههم فى ذات الوقت.. واللتان اختزلتا المسرح فى داخلهم فى هذين الشكلين.. الحزن والسعادة.. الضحك والبكاء.. الألم والارتياح.. فلم يعد فى داخل المصريين ما بينهما.. دراما الحياة.. تلك الدراما التى صاغها المسرح فى مصر.. بشكله الحديث منذ النصف الثانى من القرن التاسع عشر.. هذا الشكل الذى كان نتاج عنصرين مهمين متوازيين.. التفاعل مع أوروبا.. وتطوير الأشكال المسرحية الشعبية.. فالمسرح الحديث عرفته مصر مع قدوم الحملة الفرنسية عام 1789.. وكانت فرقة «الكوميدي فرانسيز».. التى أسست فى الأصل للترفيه عن جنود الحملة فى مصر.. هى النافذة التى أطل منها المصريون.. إما عبر مثقفيهم وطبقتهم الأرستقراطية.. التى كانت تتابع عروض هذه الفرقة.. أو سماعيا عبر ما كان يتواتر إلى الأذهان عنها.. على هذا اللون المحبب إليهم من الفنون.. كانوا يدركونه ويعرفونه من قبل.. لكنهم بهروا بما قدمه من تجديد.. وفى عام 1869 أقام الخديوى «إسماعيل» – مرة أخرى – المسرح الكوميدى الفرنسى ودار الأوبرا.. كان هدفه استقبال الوفود الأجنبية المشاركة فى احتفالات افتتاح قناة السويس.. ولكنه بنى فى الوقت نفسه.. عام 1870 وفى الطرف الجنوبى من حديقة الأزبكية المطل على ميدان

العتبة.. مسرحا آخر كان نواة لأول مسرح وطنى.. قدم على خشبته عام 1885 أول موسم مسرحى لفرقة «أبو خليل القبانى».. تبعتها فرقة «إسكندر فرح» وبطلها سلامة حجازى أشهر أعمالها من عام 1891 حتى 1905.. وهو العام الذى شهد أول موسم لفرقة الشيخ «سلامة حجازى».. وفى عام 1921م افتتح المسرح القومى بأربع مسرحيات دفعة واحدة.. بمعدل يومين لكل مسرحية.. وظل هذا المسرح يقدم أعظم الأعمال المترجمة والعربية لرواد المسرح المصرى والعربى.. دخلته مرات عديدة.. فأنا من عشاقه.. تبقى فى أعماق الذاكرة «الزير سالم».. و «ذكى فى الوزارة» للمبدع لينين الرملى.. وكانت هذه هى آخر مرة أدخله فيها قبل أشهر قليلة من احتراقه عام 2008.. دون شفاعة لإنذارات الحريق والطفايات وحنفيات للحريق الضخمة المنتشرة فى جنباته.. ولا للإدارة الرئيسية للحماية المدنية بالقاهرة.. الواقعة فى ميدان العتبة على بعد خطوات من مبنى المسرح! أسفت على العرض الذى اتهم بسوء الطالع.. الذى كان المسرح يستعد لاستقباله بعد أيام «الإسكافى ملكا».. وهو العرض الفائز بجائزة مهرجان المسرح القومى السابق.. وأسفت على جدرانه ومقاعده وخشبته.. وأسفت لأنه الحريق الثانى الذى يلتهم مكانا للتنوير.. مع فارق القياس.. فالمكان الأول كان قصر ثقافة بنى سويف قبل عدة سنوات.. ولكنى حمدت الله أنه لم يكن هناك ضحايا من البشر.. فمن فقدتهم حركة التنوير فى بنى سويف.. يصعب كثيرا تعويضهم أو حتى الحزن عليهم!

6

أتوقف كثيرا عند حريق المسرح القومى.. المواجه للإدارة الرئيسية للحماية المدنية.. والمجاور لموقف أتوبيسات العتبة بضخامته.. والحركة المتواصلة طوال 24 ساعة على أرصفته.. أتوقف عند حريق كبير حدث فى مثل هذه الأيام فى رمضان الماضى.. بعد شهر واحد من حريق المبنى التاريخى لمجلس الشورى بالقاهرة.. ليلتهم المسرح المصري الأكبر والأقدم بالمنطقة.. قبل لحظات من آذان المغرب وإفطار الصائمين فى مصر المحروسة كلها.. بدأت من ستارة خشبة المسرح.. ثم انتشرت بسرعة فى القاعة الكبرى له.. فأتت على محتوياتها بالكامل.. الأكثر إيلاما وتأثيرا فى نفسى.. انهيار القبة الرئيسية للقاعة.. بعد قرابة ساعتين من صراعها مع النيران.. تلك القبة المكونة من أخشاب رقيقة ضعيفة.. ظل المسئولون ينفون انهيارها.. ولكن الصور التى التقطت من قبل الحضور كانت أكثر صراحة.. لم يظهر لهذه القبة وجود.. ظهرت فقط القبة الصغيرة.. المسرح كله كان تحفة معمارية وأثرية.. غصة فى حلقى تشبه تماما تلك التى كانت عند حريق المسافر خانة فى تسعينيات القرن الماضى.. غضب من هذا الذى يقف وراء كل حرائق المناطق المهمة والعزيزة على نفوس المصريين.. «الماس الكهربى»!

وعندما ارتفع آذان العشاء.. كانت نسبة السيطرة على الحريق فقط 30 ٪.. وكان المكان كله يغص بالصحفيين والمواطنين.. وكانت هناك 25 سيارة إطفاء.. لم تستطع إنقاذ شىء.. وتلك هى الدنيا!

الأخيرة

تلك هى الدنيا!

قبل رمضان عام 2009 بعدة أيام.. طلب منى الأستاذ «نصر القفاص» مدير تحرير الأهرام والمشرف على الطبعة العربية الكتابة تحت عنوان «الدنيا».. لنشرها كحلقات يومية فى رمضان.. لمعت الفكرة فى ذهنى فى التو.. وقفزت أفكار لعشر حلقات دفعة واحدة.. ولكن عندما بدأت الكتابة.. أدركت صعوبة الأمر.. الكتابة عن الدنيا ليست مسألة سهلة بالمرة.. فالحديث عن البشر والأماكن قد يبدو حديثا لطيفا.. لكنه معقد جدا.. الكثير من التفاصيل تزدحم فى رأسى.. لكنى أختزلها فى سطور صفحة.. الكثير من الأشخاص الذين وددت الكتابة عنهم.. لم تسعفنى الصفحة فى هذا.. الكثير من الأماكن المؤثرة فى حياتى.. لم يسعفنى الوقت للكتابة عنها.. وفى 2012 عندما بدأت التفكير فى إصدار هذه الحلقات فى كتاب.. كان أيضا الفضل فى كل الجهد الذى حدث يرجع إليه.. زوجى وصديقى «نصر القفاص».. لولا وقوفه إلى جانبى.. ودفعه لى طوال الوقت.. ما خطوت تلك الخطوة.. وما وجد هذا الكتاب طريقه إلى دار النشر..

1

كنت أود بشدة الكتابة عن الصعيد.. فكتبت عن أسوان.. ولكنى لم أكتب عن النوبة ما وددت أن أكتب لسياق الحلقة.. النوبة لم تعن عندى فقط النغم والأغنيات والرقصة الشهيرة.. لم تعن الأرض التى تثير شجن النوبيين باستمرار.. لم تعن فقط منير ومحمد حمام.. النوبة تعنى أيضا داخلى «حمزة علاء الدين» الفنان النوبى الراحل الرائع.. التقيته للمرة الأولى فى مطعم «الجريون».. تناولت الإفطار معه صباحا.. كان المطعم المعروف أنه ليلى خاليا.. كانت رائحة اللقاء.. برائحة الجبن القديمة المخلوطة بالطماطم والطحينة.. والفول المدمس على الطريقة المصرية.. وبعض الطرشى البلدى.. كان يصحبنى إبن شقيقته.. صديقى الفنان النوبى «كرم مراد».. لم يغن «حمزة» يومها.. لكنه تحدث.. تحدث كثيرا عن النوبة.. وكان يعيش فى الولايات المتحدة الأمريكية منذ سنوات طويلة.. وفيها توفى أيضا.. متزوج من يابانية.. عاش معها بلا أطفال.. يعرفه العالم الغربى جيدا.. ويقدر قيمته جيدا.. حفلاته فى أمريكا دائما محجوزة مقدما.. يؤلف موسيقى ويغنى ويلحن.. فتتهافت عليه قلوب الشباب والكبار.. من كل الأطياف والأذواق.. فهى يخاطب الروح.. لذا فقد ظل باقيا حتى بعد وفاته.. بكل تلك الأغانى والألحان التى قدمها للموسيقى فى العالم..

النوبة عندى تعنى البشر الذين صادفتهم وتعاملت معهم عن قرب.. تعنى طيبة القلوب التى تنضح دائما على الوجوه.. عمى محمد الأدندانى

الممثل العبقرى فى أدائه.. والذى لم يأخذ فرصته حتى الآن.. عم زكريا عامل الأسانسير فى الأهرام.. الدؤوب المجتهد.. المبتسم دائما.. تعنى عم أبو القاسم عامل الكافيتيريا.. باعتزازه بنفسه رغم تجهمه أحيانا.. تعنى النوبة هؤلاء المصريون الطيبون.. الذين يدركون قيمة الأرض..

لم أكتب عن الصعيد.. منبت أجدادى.. قرية «جهينة».. محافظة سوهاج.. لم أكتب عنها لأنى لم أزرها.. لكنى وعيتها فى العمق ببشرها.. أهلى.. رجال أقوياء.. لا يتنازلون أبدا.. يدركون قيمة المرأة.. ومعنى احترام المرأة.. المرأة الصعيدية.. تلك الجبارة أبدا.. حتى من وراء الستار.. التى تدرك قيمة الرجل.. ولا تعنيها كل دعاوى المساواة التى تدور رحاها منذ سنوات طوال.. فقد حصلت عليها على طريقتها منذ زمن.. الصعيدية الجبارة تعنى عندى العمة «نبوية».. عمتى.. أم الشهيد.. استشهد ابنها فى حرب 1973.. ودفن بمقابر الشهداء بمحافظة السويس.. ومنذ ذلك الحين.. وهى تقوم برحلتيها فى الشتاء والصيف.. لزيارته.. حتى بعد أن تجاوزت الثمانين من عمرها.. سوهاج.. القاهرة.. السويس.. والعكس.. تعرفها جيدا قضبان وعربات قطار الصعيد..

2

راودتنى كثيرا فكرة الكتابة عن الصحافة.. وترددت كثيرا أيضا.. فسبعة عشر عاما – حينها – فى مبنى الأهرام ليست أبدا كافية للكتابة.. رغم

ازدحامها بالتفاصيل والحكايات والصدمات ومناطق النور أيضا.. وعندما شرعت بالفعل كان من يمكن الكتابة عنه حقا.. الأستاذ الذى رحل «محمود عوض».. رحل فى بداية شهر رمضان.. رحيل اعتبره البعض قاسيا.. ولم أره كذلك.. رحل وحيدا.. كما عاش طوال عمره وحيدا.. ولم أره كذلك أيضا.. رحل كما أراد لنفسه.. مثلما عاش كما أراد لنفسه.. هو الذى اختار أن يحيا وسط الناس وبدونهم فى ذات الوقت.. كل الناس.. المقربون منهم وغير المقربين.. وتلك كانت معادلته الصعبة..

عرفت الأستاذ «محمود عوض» فى شهر يونيو 2006.. ولم أره إلا مرة واحدة بعدها بشهر واحد.. ولكنى ظللت أهاتفه باستمرار.. يستقبل المكالمات على تليفون منزله حتى السابعة مساء.. سعيت للقائه طويلا وكثيرا.. تابعته عبر كتاباته أكثر.. وفى يوم فى شهر يونيو 2006.. توقف بى التاكسى أمام مؤسسة الأهرام.. عندما دق هاتفى المحمول.. كان على الطرف الآخر الزميلة الصديقة رئيسة قسم تحقيقات وتقارير خارجية بالأهرام «زينب الإمام».. «أين أنت؟».. قلت لها: «أمام الأهرام».. قالت: «مرى على فورا.. الأستاذ محمود عوض يريدك على وجه السرعة».. لم أنطق.. عقدت المفاجأة لسانى.. الأستاذ يريدنى أنا؟! تعجلت أسانسير الأهرام ليصعد بى إلى الرابع.. حيث صالة التحرير.. قبل أن أفتح باب مكتبها.. بادرنى الأستاذ «محمد عبد الهادى» رئيس القسم الدبلوماسى بالأهرام قائلا: «الأستاذ محمود عوض يريدك بسرعة».. قلت له: شكرا.. دخلت مكتب الأستاذة «زينب».. أعطتنى رقم تليفون منزله وقال: «الأستاذ يريدك أن تهاتفيه.. ماذا فعلتى؟!».. قلت ضاحكة: «والله لم أفعل شيئا».. مررت عبر الممر الطويل الملتف حول صالة

التحرير.. دالفة إلى الغرفة الزجاجية لدسك الطبعة العربية.. بادرنى الزملاء: «الأستاذ محمود عوض تكلم ويريدك أن تهاتفيه».. جلست إلى مكتبى ممسكة بسماعة الهاتف.. أضغط بأصابعى رقمه.. وضربات قلبى تتسارع: «الأستاذ محمود؟ أنا إيمان إمبابى».. كانت المرة الأولى.. ولم تكن الوحيدة.. كانت عادته معى.. مرحبا بشوشا مبتهجا.. عندما يرد على الهاتف..

الأستاذ «محمود عوض».. أجرى ثلاث مكالمات تليفونية طالبا صحفية لا يعرفها ولم يسمع بها من قبل.. وكان السبب المهنة.. تلك التى لم يعرفها أو يحترمها أو يضار بسببها أحد مثله.. كنت قد انفردت – عالميا – للأهرام بتفاصيل ما دار فى آخر اجتماعات البنك الدولى.. والتى أقيل أواستقال بعدها رئيسه.. مهندس حرب العراق «بول وولفويتز» فى سابقة هى الأولى من نوعها فى تاريخ البنك منذ إنشائه فى الأربعينيات.. كنت أتابع الملف وتداعياته قبلها بأشهر طويلة.. وكان الأستاذ أيضا يتابعه فى مقاله على صفحات «الحياة».. اهتم ليعرف من أين حصلت على المعلومات.. إهتم أن يقول كلمة تحية لصحفية صغيرة.. ثلاث مكالمات عمدا وقصدا.. تحمل شهادة كبيرة جدا لا يعرفها الكثيرون.. لم يعرفها أبدا مدير التحرير الذى لم يدرك معنى كلمة انفراد.. مفضلا التأجيل لحين وجود مساحة!!

3

وددت أن أكتب عن الجزائر أكثر مما كتبت.. وددت أن أكتب عن الجزائريين بحسب ما رأيتهم لأول مرة فى وطنهم.. تلك الخلطة صعبة

المراس.. سهلة المراس فى ذات الوقت.. تلك الصداقة التى تنشأ بسرعة بينك وبين الباعة فى المتاجر.. وعمال الفندق.. ورجال الشرطة وددت أن أكتب عن رغبتهم فى أن يعرفهم الغرباء.. عندما يتحدثون.. تمتزج فى الجملة اللغة المحلية بالفصحى بالفرنسية.. فتسقط أنت فى متاهات عدم الفهم.. فيبدأون بمنتهى الهدوء فى تفكيك الجملة.. وتبسيطها رأفة بك حتى لا تشعر بكل هذا الضياع.. يتبسطون معك بأكثر مما تتوقع منهم.. أو بخلاف ما يصلك عن تجهمهم أو صلابة ملامحهم أو قطعهم حبال التواصل.. يمدون دائما الجسور بينهم وبين كل ما هو مصرى.. أدهشنى غرامهم بالتليفزيون المصرى بقنواته الفضائية المختلفة.. لا سيما الثقافية.. أدهشنى غرامهم بالمسرح.. ليس فقط غراما.. تعبد.. عقلية حب للحياة.. عقلية عطش للحياة.. عقلية متعجلة للوصل مع الحياة.. وددت أن أكتب عن ألمهم الذى مازال حيا.. من تلك العشرية السوداء.. كما يسمونها.. سنوات الإرهاب.. تقديرهم لكل الدماء التى سالت.. وتقديرهم لرئيسهم الذى حما الجزائر بالجزائريين..

وأدهشنى أيضا تذكيرهم لأنفسهم بما فعلت بهم فرنسا.. تمسكهم بضرورة اعترافها وأسفها واعتذارها.. عما اقترفت على أرض الجزائر.. ليس اعتذارا مدفوعا مسبقا على غرار ما فعل الأخ العقيد.. اعتذار حقيقى أمام العالم كله.. فهذا يرضيهم.. أن تعترف بذنبك.. أو بجرمك.. تلك هى أول درجات التوبة والتصالح..

4

عندما كتبت عن شارع الجلاء.. الذى يعنى عندى بوضوح جريدة الأهرام.. وعلاقتى ببناياته وأشخاصه منذ الثمانينات من القرن الماضى.. تحدثت عن «فرقة الأهرام المسرحية».. وحبست قلمى عن الحديث فى تفاصيلها.. فتفاصيلها تدفع شجنا عميقا إلى نفسى.. «فرقة الأهرام المسرحية» فى يقين الكثيرين هى «محمد إمبابى».. و «محمد إمبابى» هو والدى.. الذى شربت منه حب الأهرام وحب الكتابة وحب المسرح وحب الفن.. «محمد إمبابى».. كان صديقى ولم أكن أدرى إلا عندما رحل.. جلست إلى جواره صغيرة أقرأ مخطوطات مسرحياته بخط يده على أوراق مسطورة.. فصلا فصلا.. عندما ينتهى من فصل.. أبدأ فى قراءته ثم نتناقش حوله ثم يكمل ما بعده.. وعندما تنتهى فصول المسرحية.. أبدأ بحفظ أحد الأدوار النسائية.. على سبيل الاحتياط.. حتى إذا ما حدث طارىء أو اعتذرت من تقوم بالدور أحل محلها.. ولم أحل محل أى منهن أبدا.. أحضر معه بروفات العمل قبل العرض.. وأواصل الليل بالنهار معه فى الاستماع لعشرات الأسطوانات الموسيقية.. ثم ننتقى منها الأنسب.. لتجهيز موسيقى تصويرية للمسرحية.. ثم أذهب معه أحيانا لأحد الاستديوهات الخاصة لتسجيلها.. حملت كارنيه «متعاونة» مع فرقة الأهرام المسرحية منذ نهاية الثمانينات من القرن الماضى.. عشقت تفاصيل خشبة المسرح وكواليسه.. عشقت دقاته الثلاث المعروفة..

التى كان يصر عليها.. حتى عندما استبدلتها كثير من المسارح بثلاثة أجراس باردة لا طعم لها ولا أثر.. عشقت انطفاء الأنوار فى صالة العرض قبل تلك الدقات المحببة..

لم أشهد وفاته.. كنت خارج الغرفة.. وعندما دخلت كان قد رحل.. بعد 17 يوما أمضاها فى غيبوبة.. أفاق منها مرة واحدة.. فأشار لى باسما.. فاقتربت منه.. فألقى لى قبلة عبر الهواء.. حادثته طويلا وهو مغمض العينين.. منفصل عن عالمنا طوال تلك الأيام.. استحلفته كثيرا ألا يرحل.. وأن يقهر تلك الأجهزة المتصلة بجسمه.. أن يقسو على قلبه.. كما فعل كثيرا من قبل.. أن يتنفس وحده بلا مساعدة من ذاك الجهاز الضخم المجاور له.. كنت مقتنعة تماما أنه أقوى من كل هذا.. وأنه سيغادر معى المستشفى كما فعل من قبل مرارا.. كنت واثقة من أنه قوى.. لأنه هو من علمنى أن أكون قوية.. وفوجئت بأنه لم يعد كذلك.. وعندما دخلت الغرفة.. لم أره ميتا.. رأيته نائما مطمئنا هادئا.. هكذا رأيته.. انتهت رحلته.. فعل فيها كل ما أراد.. فغادر مستريحا محبوبا محترما من الجميع.. هكذا رأيته.. ولم تعد هناك «فرقة الأهرام المسرحية»!

5

عندما كتبت عن منطقة «محطة الرمل» فى الإسكندرية.. كتبت عن عدة أشهر أمضيتها فى عمل فترة الانتخابات الرئاسية والبرلمانية عام 2005.. لكنى لم أكتب عن «روب يور» ما كان لزاما أن أكتبه.. عشقه لمصر رغم أنها كانت

زيارته الأولى.. وعشقه للصحافة منذ كان صغيرا.. يذهب مع والده الذى كان صحفيا أيضا إلى المطبعة.. فتختزل ذاكرته مشهدا مارسه هو نفسه فيما بعد.. شم رائحة أول صحيفة تستقبلها يداه مشبعة بحبر المطابع.. «روب يور» المدرب الصحفى الأمريكى.. الذى كان يحرص عند وضع جدول البرنامج التدريبى.. أن تكون أوقات كل استراحة فى أوقات صلاة الظهر والعصر.. ليتيح للصحفيين المصريين فرصة أداء الصلاة.. كان يقوم بهذا بشكل طبيعى.. كان محترما لكل الأديان.. وطريقة كل شخص فى التعبد.. زار معى الكثير من المساجد متطهرا.. كان يعلم أن هذا شرط دخول المسجد.. يأخذ حماما قبل دخول المسجد.. كان حريصا على مشاعر الآخرين لأقصى درجات الحرص.. مثقفا رفيع المستوى.. قارئا بعمق فى الأديان والعقائد.. كلها.. أقول كان.. لأنه توفى وسط هذا البرنامج التدريبى.. وفى حديقة الأورمان.. كان حفل تأبينه.. وهناك شجرة زرعناها جميعا باسمه.. تحمل اسمه.. مندوب عن السفارة الأمريكية.. وزملائه فى البرنامج التدريبى من الأمريكيين.. والمصريين.. «روب يور» نموذج يستحق الكتابة لأمريكى بسيط.. صاحب علاقات رائعة مع الكثير من البشر فى أنحاء العالم المختلفة..

6

وددت أن أكتب كثيرا عن حدائق القبة.. الحى الذى كبرت فيه.. عند تبدل الأحوال.. تراجع تتراجع وتظهر أخرى.. تلك الحدائق والزراعات التى كثيرا ما عبرتها وأنا فى المرحلة الإعدادية.. بيوته ذات الدور الواحد.. التى

اختفت بفعل عوامل التعرية البشرية.. وحلت محلها أبراج سيئة عشوائية.. ساهمت فى بث شعور لدى قاطنيه وعابريه بأنه أصبح أكثر ضيقا واختناقا من ذى قبل.. إشغالات الطريق.. والضوضاء فى شارع مصر والسودان.. الهدوء والإحساس بالاطمئنان بجوار سور المخابرات المصرية.. ببواباتها الحديدية العتيقة.. شعور الاطمئنان ليس شعورا خاصا بى.. وإنما هو شعور عام لدى مواطنى تلك المنطقة.. وكثيرا ما كنت أحادث نفسى عبورا بهذا المبنى المهم.. داخل هذه الغرف المضيئة ليلا.. الهادئة من أى شىء.. يدار الكثير من العمل الصامت.. هذا المبنى شاهد على قيمة مصر.. التى قد يشكك فيها البعض.. هذا المبنى شاهد على ثقل مصر.. وترد إلى الذهن عفوا.. الكثير من الأسماء التى جسدتها الدراما التليفزيونية المصرية.. لمصريين قدموا للوطن الكثير عبر سنوات طوال.. ومازالوا.. وكثيرا ما ينتابنى شعور جارف بالرغبة فى معرفة آخرين من هؤلاء ممن لم يتم ذكرهم بعد.. لدى نهم فى معرفة الكثير عمن يقدمون أرواحهم فداء لهذا الوطن..

7

وعندما بدأت بكتابة الدنيا.. كان يرد إلى الذهن دائما.. رائعة أديب نوبل الجميل «نجيب محفوظ».. «حديث الصباح والمساء».. تلك التى حكى فيها عن الموت والحياة.. الميلاد والوفاة.. رآها فى ذاك الوقت بهذا الشكل.. كل التفاصيل التى يعيشها البشر هى بين قوسين لا ثالث لهما.. الميلاد والوفاة.. بشر يأتون إلى الدنيا.. فينثرون من أرواحهم عبر جنباتها.. يرتبطون بأماكن

فترتبط بهم.. ثم يغادرون.. تاركين من أرواحهم بصمات.. تحيا طويلا بعد هذا الرحيل.. بشر.. على اختلاف ألوانهم وطباعهم وأعراقهم.. مخلوقون من روح الله.. المتصوفة يقولون عبارة رائعة فى هذا.. الله داخلنا.. فى كل شىء.. وأنا أرى أننا نحن داخل الله.. فى ملكوته الواسع حتى يوم الدين.. وتلك هى الدنيا!